رواية

حياة أُخرى !

محمود السيد
01227167951
01005229132
Ad7amm@yahoo.com

إهداء

لأصحاب الأحلام المؤجلة ومن اختلطت أعمارهم بالحرمان
أُهدي كتابي .
محمود محمد السيد
2018 / 5 / 15

1

أرخى الليل ستائره على هموم القرية ما بين شقيّ وسعيد وخفتت الأصوات إلا من صوت الخفر يجوبون الطرقات ، بين الجبل وبين النهر عاشوا أبّاً عن جد يزرعون الأرض ويرعون الدواب ، من أفقر قرى صعيد مصر كانت الكوامل بناسها الطيبين ، لا يوجد بينهم غرباء وقد جمعت بينهم أواصر الدم والمصاهرة وقليل من أحاديث العشق تطل عليهم عبر السنين أناشيد خالدة يرويها الآباء عن الأجداد نافستها أحاديث الثأر ، من مات ومن قُتل ومن ينتظر ، تراوحت ملامح القرية بين الفرح وبين الحزن لكنهم في كل الأحوال يعرفون الواجب وما ينبغي أن يكون ، تفرح القرية لفرح أحدهم ومع الفراق يعم الحزن الوجوه حتى الجدران ، علاقة غريبة ربطت بين الناس فلا تكاد تعرف من المسيحي ومن المسلم ، البيوت متجاورة أغلبها من طين وتبن وأخشاب وأسقف معروشات ، من بينها بيت شعيب وزوجته حليمة وأصوات آمنة وأشقائها عطية ومحمد وفاضل تعبر الجدران مع حرارة مرتفعة لا تطاق ، الصيف في صعيد مصر قطعة من النيران على شعيب أن يتحملها كعامل من عمال التراحيل ، لا يجيد عملاً بعينه ولكن مع كل طلعة شمس يحمل أدواته ويجلس واحداً من عشرات في الميدان الكبير ينتظر من يشير إليه بطرف إصبعه ليتبعه مهرولاً إلى حيث كان ، مرات كثيرة أُصيب بضربة شمس وبقي طريح الفراش أيام تطارده حاجة أولاده للطعام ، حاجتهم للحياة فيهب من نومه متحاملاً على نفسه قاصداً الميدان ومعه أدواته إلا هذه المرة ارتفعت حرارته وبمعاونة الجيران نقلوه إلى المستشفى الأميري ومنها انتقل شعيب إلى الجانب المضيء من الكون ، حملته ريح طيبة إلى السماوات العلا لتعود حليمة بروح خاوية وقلب فارغ وحزن مقيم والأولاد يتساءلون ، لم تعد الصرخات كافية ولا لطم الخدود امتنعت حليمة عن الكلام مكتفية بالصمت ، تكلمت عيناها تشيران إلى أولادها ، تسأل من يتكفل بهم ؟ تجمعت القرية لتشييع جثمان شعيب إلى مثواه الأخير لم يكن المثوى ببعيد ومن الغريب أنه قريب بشكل تعارفت عليه القرية ، الحياة في جانب يقابلها الموت على الجانب الآخر ، بيوت القرية في مواجهة المقابر يفصل بينهما طريق ترابي ، أما عن زيارة الموتى فليس لها موعد محدد فكل يوم زيارة وعقب كل صلاة جمعة ميعاد ، الفارق بين الموت وبين الحياة طريق يقطعه الأهالي صباح مساء ، كل يوم زيادة في جانب ونقصان في الجانب الآخر ، ميلاد وموت ، بوفاة شعيب نقص عدد الأحياء وزاد عدد الموتى واحداً وغداً يخرج للحياة من يزيد عددها وكأننا في مباراة بين الحياة وبين الموت .

انتهت مراسم تشييع الجنازة وترامى صوت حليمة الباكي من خلف الجدران ومعه أصوات لنساء ينتحبن اختلطت بصوت آمنة وأشقائها ، وعلى المقابر ظل قاريء القرآن يرتل ما تيسر من سورة الرحمن لعل الله يرحم شعيباً ويسكنه فسيح جناته ، يقرأ ويدعو للمتوفى مقابل أجر ولا يهمه أن يستجيب الله أو لا يستجيب بضع آيات وأدعية حفظها عن ظهر قلب ، في المساء جلس الرجال في دار المناسبات ومعهم أبناء شعيب يتلقون العزاء ويستمعون للقرآن ويدعون للمتوفى بالرحمة فقد كان رجلاً فقيراً عفيف النفس ، وكعادة القرية في تلك المناسبات ، قدم كل بيت ما يجود به لأسرة المتوفى لأيام متتالية وحليمة لم تبت في أمرها بعد ، من قرية المحامدة القبلية جاء أبناء عم زوجها وبعض أقاربها ليتشاوروا في الأمر ، لم يكن هناك تشاوراً إلا فيما بينهم ، خيّروها إن كانت تريد الزواج عليها ترك أولادها فهم أولى بهم من الغريب وإن أرادت العيش لتربيهم فلها منهم كل العون ، اختارت حليمة أولادها مرغمة ، كان خيارها الوحيد ، لو كان الأمر بيدها لاختارت من بين رجال القرية رجلاً يعفها ويرعى أولادها ، لكنهم خيّروها بين أن تموت كامرأة وبين أن تربي أولادها وهى لم تزل في السادسة والثلاثين من عمرها ، من نساء القرية كثيرات أصبحن أرامل بلا مقدمات واتشحن بالسواد ما بقي لهن من عمر ، وفي

انتظار ما تقرره حليمة عرضوا عليها الانتقال معهم إلى قرية المحامدة لتعيش بينهم ولتكون قريبة من ابنتها آمنة بعد زواجها من ابن خالها .
بقيت حليمة في البيت تنتظرعودة عطية وشقيقيه من العمل ، مازالوا دون العاشرة ، أي عمل يقومون به نظير أجر ضئيل بالإضافة إلى مساعدات أهل الخير عاشت الأسرة الصغيرة وحليمة تتأهب لانتقال ابنتها إلى بيت الزوجية مع ابن خالها الشيخ اليمني ، محفّظاً للقرآن في الصباح ومنشداً دينياً في المساء ، يحيي الحفلات وتُشد له الرحال من القرى المجاورة ، لم يمر من الوقت الكثير حتى انتقلت آمنة إلى بيت زوجها وبدأت جراح حليمة تندمل شيئاً فشيئاً وأولادها من حولها تتأمل حالها كامرأة ، وهى ككل النساء في حاجة إلى رجل ، توقظها حواسها بين الحين والحين مرغمة تتمنى أن تبعد عنها شبح التفكير فيما أحلّه الله لكنها تفشل في كل مرة تستسلم لخيالها ومشاعرها كأنثى كثيراً ما أفضت بما يعتمل في جسدها لجارة لها غاب عنها زوجها أو أرملة غيّبت زوجها الأيام ، يتبادلن الحديث عن الرجال دون حياء ، هكذا خلقهن الله وخلق الرجال لتستمر الحياة ، وبين حرارة الجو وحرارة الجسد مضت بحليمة الأيام وهى تفكر في مصيرها المحتوم على الجانب الآخر من القرية حيث دفن شعيب حدّثت أبناء عم زوجها ربما رق قلب أحدهم لها فأشاروا عليها بالسفر إلى القاهرة ففي القلب منها أخ لهم فتح الله عليه ، سيلحق أولادها بالعمل عنده وبالقطع سيتغير الحال كثيراً بدلاً من البقاء في القرية وانتظار الموت ، أدركت حليمة أنهم يريدون التخلص من همها ولم يمض على حزنها إلا عامين ، شعرت بالمرارة وأقسمت أن تغادر إلى القاهرة ، استجمعت شجاعتها وجمعت أشياءها وما يلزم أولادها من فراش متواضع ، ودّعت ابنتها آمنة وانطلقت مع نفر قليل من أهل القرية إلى محطة القطار بسوهاج تحمل كثير من الأمنيات الطيبة والتوصيات بقراءة الفاتحة لسيدنا الحسين وتوصية أُخرى بزيارة السيدة زينب والدعاء لأهل القرية عندهما ، استمرت الأمنيات والتوصيات حتى أطلق القطار صافرته وبجوار النافذة جلست حليمة .
تأملت لساعات ما مر بها من ذكريات ومشاهد تترى وتتوارى مع أعمدة الإنارة والأشجار والقطار يقطع الطريق في ضراوة ، هدأ القطار من سرعته واستسلمت حليمة للنوم مرغمة ، لم تدر ما مر بها من وقت ، فتحت عينيها على تباشير نور والأرض تتأهب لآذان الفجر ، من على البعد لاحت البيوت وبعض البنايات الضخمة وتعالت أصوات ديكة الفجر وانطلقت أسراب الحمام ، فركت عينيها على نور الصبح اقتربت أصوات الناس أكثر والقطار على وشك الوصول إلى المحطة الأخيرة ، باب الحديد بوابة الدخول إلى القاهرة لكل شارد ووارد من الوجه البحري والقبلي ، هبطت ومعها أولادها وقد تعلقوا بيدها وثوبها ، وبيدها اليسرى قبضت على عنوان تحددت فيه وجهتها ، مع السائرين سارت واحدة من مئات ، لم يلتفت إليها أحدهم أو يلق لها بالاً ، الكل يعرف وجهته إلا هى ، تقدمت إلى آحاد الناس تسأل : 8 شارع ابراهيم اللقاني - روكسي - مصر الجديدة - حامد كمال الدين ، نظر إليها الرجل في ارتياب وأشار عليها بركوب الترام .

2

في تلك الفترة من عام 1935 كانت مصر محتلة من قبل الانجليز ، عاش فيها الألمان جنباً إلى جنب مع الفرنسيين وقليل من الطليان وكل ديانات العالم الأقباط واليهود والمسلمين يجاورهم من لا دين له شعوب كثيرة وطأت أقدامها مصر ، استوعبتهم جميعاً ولم تتغير أو تتحدث لغتهم بل تعايشت معهم حتى استقلت وبقيت متفردة بكل ما تحمله من جينات وحضارة ضاربة بجذورها في التاريخ ، وصعيد مصر أساس الحضارة ، وفد منه إلى القاهرة أُلوف مؤلفة ، لم يكن حامد كمال الدين أولهم ولن تكون حليمة آخرهم فقد سبقها حامد بعشر سنوات مما مكّن له فكان له محل لتجارة الخضروات والفاكهة ، لا يهتم بالسياسة فلم يكن مؤيداً للإنجليز ولا ضد مصلحة مصر، إنتماءه الأول للقمة العيش فلم يمانع في التجارة مع قوى المحتل ، يمد معسكراتهم بالخضر والفاكهة ، لا يعاني من تشابه الأيام فهذا أمر لا يعنيه ، فالمحل موجود بذات العنوان بشارع إبراهيم اللقاني بمنطقة روكسي ، يبدأ عمله في السابعة صباحاً ، ينثر الماء أمام المحل ويستمع إلى آيات الذكر الحكيم ، لم تُخلف حليمة موعدها بعد السؤال تلو السؤال ومازالت الورقة بيدها وفي السابعة تماماً وقفت تنتظر ومعها أولادها .

هيئة المرأة أثارت انتباه حامد وهو ينحني على باب المحل وبيده بضعه مفاتيح ليرتفع بقامته ومعه الباب ومازالت المرأة ترنو إليه في تأمل ، انتظر ليعرف حقيقتها وماذا تريد وبعد تردد دس يده في جيبه وأخرج بعض القروش وضعها في كفها ، أشاحت بوجهها ودفعت يده بكبرياء :

- لم أت إليك لأتسول .
- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .
- انا حليمة زوجة شعيب .
- ومن يكون شعيباً ؟
- شعيب كمال الدين ابن عمك ، تركت الكوامل بعد وفاته .
- متى مات شعيب ، لا إله إلا الله ، لم أره منذ زمن بعيد .
- من حوالي سنتين ، مات بلا مقدمات .
- وماذا تفعلين مع أولادك ؟
- العمل عمل ربنا ، فقط أُريد أن تساعدني في تربيتهم حاولت حليمة أن تمنع دمعاً جرى دون جدوى
- لا تبكي ولا تحملي هماً ، الرزّاق موجود .

اطمأنت حليمة بعد أن وعدها حامد بإلحاق أولادها بالعمل بالمحل فهو في حاجة إليهم ، باتت حليمة مع أولادها في بيت حامد وأُسرته لحين توفير سكناً لهم .

لم تكن موضع ترحاب من فهيمة زوجة حامد ذات الجمال المحدود والوزن الزائد ، قاربت حليمة في العمر ، ربما تكبرها بعامين ، أربعينية كانت أرهقتها الغيرة من أول يوم ، حليمة في الثامنة والثلاثين تضج أُنوثة رغم مظهرها البائس ، أُنوثة أعلنت عن نفسها دون مواربة مع كل التفاتة ولمحة ونظرة عين غير مقصودة بالطبع لكنه الجمال الذي منحها الله إياه زرقاء العينين في غرابة وكأنها وفدت إلى القاهرة من أُوروبا ، وفهيمة الموت أهون عندها من بقاءها في بيتها وكان لابد من الحديث مع حامد بعبوس الوجه والنظر شذراً وتقطيب الجبين بلا مناسبة ربما للفت نظره إلى ما ألم بها ، ولمّا لم يُعرها زوجها اهتماماً انفجرت باكية وحليمة لا تدرى ما بها وتربت على كتفيها ، انفردت فهيمة بزوجها في الحجرة المجاورة :

- حامد ، اتصرف بسرعة وإلا سأذهب إلى بيت أبي ولن أعود .
- ماذا حدث ؟ ناقصك شيء ! لك أن تأمري .

- لا شيء ، فقط أريد أن يكون البيت بيتي وليس بيت أحد آخر .
- البيت لك يا فهيمة ، هل تغير شيء !
- نعم تغير كل شيء ، اهتمامك الزائد ! والدلال بلا مناسبة ..
- لا أفهمك ! ماذا تقصدين ؟
- أقصدها هى ، حليمة ، حليمة ، إما أنا أو هى ، من الغد سأترك لك البيت .
ارتفع صوت فهيمة وتناهى إلى أذن حليمة التي شعرت بحرج بالغ وراحت تلملم أشياءها في صمت .
تدارك حامد الأمر حتى يفض الاشتباك بين حليمة وبين زوجته التي لم تعد تطيق البقاء لحظة في مكان يُذكر فيه اسم حليمة التي انتقلت مع أولادها إلى حجرة فوق سطح منزل الأديب عباس محمود العقاد - 13 شارع السلطان سليم المجاور لمحل حامد ، دلّه عليه أحمد حمزة الخادم الخاص بعباس العقاد .
تفاءل حامد بحليمة فقد زادت حركة البيع والشراء في المحل ، وعلى الجانب الآخر من الشارع ، تحت البواكي محلات كثيرة ومكتبات تبيع الكتب الأجنبية يرتادها صفوة المجتمع من المثقفين والأُدباء والكتّاب المترددين على منزل الأديب عباس العقاد وبجوار المكتبة محل آفو للتصوير ، دأب حامد على تزويد أسرة حليمة ببعض الخضروات والفاكهة كنوع من المساعدة أو الصدقة دون علم زوجته ، قدّمها عن طيب خاطر وتسامح يغلّفه إحساس رقيق بالمسؤولية ، ذلك الإحساس كان دافعه لإلحاق عطية وفاضل للعمل عنده أما محمد فقد انتقل للعمل بمحل آفو للتصوير ، آفو أرمني الأصل وفد مع أبوه إلى مصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى ونجاته من مذابح الأرمن قبل ثلاثين عاماً مضت ،عشق فن التصوير أبا عن جد حتى استقر تحت البواكي على الجانب المقابل لمحل حامد الفكهاني انتظم محمد في العمل وأخلص لفن التصوير كما أخلص له معلمه الأول الخواجه آفو كما كانوا يطلقون عليه أما شقيقه عطية فقد عمل مع أخيه فاضل على عربة يد وضعاً عليها من الخضروات قدر وراحا يطوفان بها في الشوارع المجاورة ويعودا بما تبقى منها إلى المحل مرة أُخرى ، يضيفا عليه أو ينتقصا منه ثم يعاودا الكرة من جديد ، تحسنت الأحوال شيئاً فشيئاً وحليمة تنتظر أولادها عصر كل يوم وقد وقفوا على أعتاب الشباب ومازالت تجتر أحزانها بين الحين والآخر ، تذكرت حياتها مع شعيب واشتاقت إلى آمنة كثيراً ، ودت لو عادت للصعيد مرة أُخرى لتملأ عينيها بها ولكن حسبها أنها تعيش بين أهلها وقد ذاع صيت زوجها ليصبح واحداً من أعمدة الإنشاد الديني في صعيد مصر أخلص محمد لعمله وكان أميناً فأحبه الخواجة آفو ووثق فيه وعلّمه التصوير الفوتوجرافي وتحميض الأفلام وسيماً مثل نجوم السينما كان محمد فأقبلت عليه النسوة المصريات منهن وجنسيات أخرى وهو الخجول صاحب المغامرات ، تنقل من واحدة لأخرى ، فهذه فرنسية تتمنى أن يضاجعها ولو يوم وهي تعي تماماً أنه فقير وأُخرى تعرض عليه الزواج لكنه يأبى ، لم يكن شغوفاً بزرقة العينين ولا الشعر الأصفر فأمه كذلك تكاد تكون فرنسية مثلهم .

3

بينما الأديب عباس العقاد جالس على مكتبه تناهى إلى سمعه صوت عذب يشدو ويصدح بكلمات أُغنية شاعت في تلك الآونة ، وعبثاً حاول معرفة مصدر الصوت ، ترك ما في يده وراح يُصغي أكثر فأكثر للصوت المنبعث من شقة عضو مجلس النواب جميل بك ، سارع بارتداء الروب والهبوط إلى الطابق الأول ليبارك لجيرانه شراؤهم راديو جديد ، في ذلك الوقت كان إقتناء الراديو حدث يستوجب التهنئة ، طرق الباب بلطف فخرجت له سيدة المنزل :

- مبروك يا هانم ، ألف مبروك على الراديو .

نظرت منيرة هانم للأستاذ في دهشة :

- ليس صحيحاً ، ربنا يسهل الأمور ونشتريه .

استغرب الأستاذ وتساءل عن صاحبة الصوت الشجي ، صوت زينب ، تلك الفتاة التي غادرت قريتها بكفر الزيات وقدمت إلى القاهرة للعمل في بيت جميل بك وأُسرته بعد وفاة أُمها وأبيها لم يبق من أسرتها إلا شقيقتها خديجة وقد تزوجت بأحد عمال النسيج بالمحلة لزينب صوت شجي حبب الناس فيها ، تعاطف معها الجيران ومنهم الأديب عباس العقاد وخادمه أحمد حمزة وكذلك الست حليمة وأولادها ، لم تطأ قدماها القاهرة من قبل مما زاد من خوف منيرة هانم عليها فكانت دائماً ما توصيها بنفسها وتحذرها من الإختلاط أو الإلتفات إلى أي رجل حتى تتزوج وتعبر تلك المرحلة الخطرة من العمر ، زينب في السابعة عشر من عمرها ، لم تكن بالفتاة الدميمة لكن جمالها من نوع خاص ، خمرية اللون كانت ذات قوام نافس صوتها روعة ، وعدتها الست منيرة بتحمل تكاليف زواجها لو صادفت بن الحلال ، شعور بالمسؤولية استقر في قلب ووجدان جميل بك وزوجته تجاه زينب ، ورغماً عنها راحت عيناها تتبعه في شغف في ذهابه وإيابه مع أمه ومن بين إخوته ، لم تعرف إسما لما اعتراها ، تتورد وجنتاها خجلاً حتى تكاد تذوب إذا مر أمامها صدفة ويتلعثم قلبها في رجفة ويرتعش صوتها إذا ألقت عليه تحية الصباح ، أصابتها الحيرة ذات المشاعر القروية لمن تبوح ، تذكرت تحذيرات الست منيرة ألا تقترب من رجل حتى تتزوج مما زاد من حيرتها ، رأته مختلفاً في كل شيء عن باقي أخويه حتى فيما اختاره من عمل ، حتى ملابسه مختلفة ، ميّزته وزادته جمالاً على جمال فكانت تتعمد السير تحت البواكي في الوجهه المقابلة لمحل الحاج حامد ، هناك محل آفو للتصوير ومحمد يتابع عمله لا يلتفت إليها ، لم تجد زينب بداً من التودد إلى الست حليمة أو كما ينادونها أم عطية حاولت التقرب منها ، تلقي عليها الصباح وتسعد بالتواصل معها عبر حكايات عن الصعيد فتبادلها زينب الحديث عن شقيقتها خديجة وزوجها عبده النساج ومن خلال الأحاديث تتعمد السؤال عن فاضل وعطية وكيف حالهم دون الإشارة إلى محمد ، قد تشير إلى محل آفو ثم تغير مجرى الحديث ، وبذكاء من حليمة أدركت ما تمر به زينب وما يعتريها من خجل كلما ذُكر اسم محمد توطدت العلاقة بينهما حتى كان يوم صارحتها الست حليمة بأنها اختارتها زوجة لأجمل أولادها ، لم تصدق ما سمعته ولم تعرف النوم في تلك الليلة ولا تعرف كيف مرت ، داعبتها أحلام العذارى وتناوبت عليها ذكرى الأم والأب وكل من تركوها ورحلوا ، كيف جاءت من تلك القرية الفقيرة بكفر الزيات وكيف لعبت الصدفة دوراً كبيراً حين اصطحبتها الست منيرة من هناك لتعمل في بيتها ، والحقيقة لم تشعر زينب أنها خادمة ولا أشعرتها بذلك سيدة المنزل أبداً واعتبرتها واحدة من الأسرة .

مساء يوم الجمعة من كل اسبوع يُعقد الصالون بشقة العقاد بالطابق الثاني في المنزل رقم 13 ، رواد الصالون نجوم الفن والصحافة والأدب ومن الفنانات كثيرات شاهدتهم زينب من خلف النافذة ، راق لها متابعة الضيوف ، من جاء مترجلاً ومن توقف بسيارته في محاذاة المنزل ، وبمرور الوقت توطدت العلاقة بين زينب وبين الست حليمة ، حكت لها عن نوادر عم أحمد

حمزة وكان يعمل في بيت العقاد وله نوادر كثيرة مع كل من عرفه ، توطدت علاقتها كذلك مع عم حامد وكثيراً ما كانت تلمح محمد يتناول الطعام مع شقيقيه .
أعدت زينب فنجان قهوة بناءً على طلب الست منيرة التي انتظرت بُرهة وراحت ترمقها بنظرات ذات معنى وكأنها تسترجع يوم اصطحبتها من كفر الزيات إلى القاهرة وأمانتها وخجلها الشديد ورغبتها أيضاً في الزواج وأن يكون لها بيت وأسرة ، تأملتها طويلاً حتى أشعرتها بالحرج وبأن هناك شيئاً تود الحديث فيه أو مواجهتها به ، سألتها عن رأيها في الست أم عطية ثم عرجت إلى أولادها عطية وفاضل وراحت تسألها عن رأيها فيهم وماذا لو تقدم أحدهما لخطبتها ، ماذا يكون موقفها ؟ وزينب في غاية الحرج ، أثنت على أم عطية فهي سيدة مكافحة حافظت على أولادها بعد وفاة زوجها وتركت قريتها في الصعيد وجاءت إلى القاهرة حياتها تشبه حياة زينب ، أعادت منيرة السؤال مرة أُخرى وزينب في حرج بالغ لا تحر جواباً ، هدّأت الست منيرة من روعها وهى تربت على كتفها وتعيد السؤال :
- ما رأيك في محمد .
- ابن الست حليمة !
- هو بعينه ، أفضل إخويه وأكثرهم وسامة .
لم تصدق زينب ما سمعته وتمنت أن تعيد عليها السؤال تلو السؤال فهي لا تملك قلبها .
- الست حليمة حدثتني في أمر خطبتك .
- لأبنها محمد ؟ لا رأي لي إذا تعلق الأمر بمحمد .
- يعني نقول مبروك ..
- يبارك فيك ربنا .
أطلقت زينب لصوتها العنان بأعذب أغاني أم كلثوم ترددت في الأرجاء ، حلمها على وشك التحقق أشاعت جو من الفرح نقلته إلى السطح حيث تقيم الست حليمة ، ما إن رأتها حتى أطلقت زغرودة مدوية قابلتها زينب بأحسن منها أعلنت بها موافقتها على الإرتباط بالأرض التي يمشي عليها محمد ، استبشرت حليمة يها خيراً فقد اتسع الرزق شيئاً فشيئاً ، استأجر محمد محلاً لأخويه بدلاً من العربة اليد والطواف في الشوارع أو الوقوف في الطرقات ولكن بقيت مشكلة الحجرة الواحدة ، بالأمس كانت تسع حليمة وأولادها ولكن ليس الأمس كاليوم وقد بلغوا جميعاً مرحلة الشباب ، أكبرهم عطية في الحادية والعشرين وأصغرهم فاضل وأوسطهم محمد ، ضاقت عليهم الحجرة ، أدركت الأم ذلك وراحت تبحث عن شقة صغيرة ولو من حجرتين لكنها أرجأت الأمر حتى تنتهي من زواج محمد والاطمئنان عليه لتحميه من نفسه وأن يكون له بيت وزوجة ، حلّقت زينب في الخيال وعاشت الحلم كل ليلة ، ترى نفسها زوجة لمحمد ، وبعاطفة الأم لاحظت منيرة وزوجها ذلك فجلسا إلى زينب وتبادلا معها حوار للتسلل داخلها حتى يطمئن قلباهما تجاه الفتاة اليتيمة فهى أمانة لديهم لحين زواجها ، وضعت زينب الفنجان أمام جميل بك واختلط دخان السجائر مع أبخرة القهوة ودار حوار :
- ربنا يتمم لك بخير ، أنت بنت حلال .
- ربنا يخليك يا ستي .
- أنت في مقام ابنتي بالضبط وأمانة أيضاً ولن نتركك إلا وأنت في بيتك مع زوجك ، وإن شاء الله تشرفيني وترفعين رأسي بين الناس .
- سيكون لك ملابس وجهاز ، سيكون لك بيت وأولاد اعتبريني أماً لك .
لم تنبس زينب بكلمة وفاضت عيناها بالدمع :
- لا أعرف ماذا أقول ، وأنا لم أعرف إلا اليتم أنتم أهلي وشرفي وعزوتي ، اطمئني يا ستي ، سأشرفك وأرفع رأسك كما شرفتني .
اطمئن جميل بك وزوجه فلم تكن زينب بالفتاة التي تفرط في نفسها فكانت كما جاءت من كفر الزيات قروية المشاعر في نقاء ، أقل كلمة ترضيها ، تحب بمشاعرها وكل جوارحها ومازال

محمد يعمل بدأب مع الخواجة آفو وقد استقر شقيقيه بمحل الخضروات الخاص بهما حتى كان يوم وبينما محمد مشغول بتحميض الأفلام وطباعتها تهلل صوت الخواجة منادياُ :
- محمد ، ألا تريد أن تصبح موظفاً؟
- أنا ؟ كيف وأين !
- تحدثت مع جريدة شمس النهار بشأنك فرحبوا بشرط أن تجتاز الإختبارات .
- وأنا لها وأنت مُعلمي ، منك تعلمت فن التصوير ..
التحق محمد بجريدة شمس النهار مصوراً بعد أن اجتاز كافة الاختبارات ببراعة وسط دهشة من اختبروه وتنقل من مرحلة إلى أخرى حتى أجاد التصوير الصحفي الذي يختلف بطبيعة الحال عن التصوير الفوتوجرافي تذكر زينب وهو يتناول من الصرّاف أول راتب له كيف كان وجهها بشرة خير، جميلة مثل صوتها شعور بالامتنان ملأ وجدانه ودفعه للإسراع في تدبير نفقات الزواج ، باركت أمه تعيينه وأوصته بزينب خيراً وحثته على الإسراع بالزواج حتى تنتقل مع أخويه إلى مكان أوسع وأرحب ، لم يكن محمد شديد الارتباط بزينب وأمه فقط ، ارتبط أيضاً بمنطقة روكسي وشارع إبراهيم اللقاني بشكل غير طبيعي فاختار شقة لا تبعد عن جميل بك وزينب كثيراً فميدان الجامع وشارع هارون إخوة مثلهم مثل أخويه فاضل وعطية ، بشرّها بالوظيفة الجديدة وبأول راتب حصل عليه ومعه عقد إيجار الشقة الجديدة هنالك استقرت زينب لتبدأ مرحلة جديدة في حياتها .

4

بزواج محمد اطمأنت حليمة على ابنها فهو كرجل في حاجة إلى امرأة تعفه وتحفظ اسمه بدلاً من التنقل بين النساء ، في تلك الآونة من أربعينيات القرن الماضي شاعت مهنة الدعارة وأخذت شكلاً رسمياً اعترفت به الدولة بل ومنحت التراخيص اللازمة لإدارة أماكن بعينها فاطمأنت كل من رأت في نفسها سلعة تُباع وتشترى ، لم يكن محمداً بعيداً عن تلك الأجواء بحكم الرغبة والسن معاً فلم يزل في الحادية والعشرين من عمره ، قوي وسيم مطمع لكل امرأة ، ومنهم زينب كفتاة شريفة تريد الستر والاستقرار مع من شغفها حباً لم ينظر محمد لها كغيرها من الفتيات وكان على يقين أن الله خلقها لتكون له زوجة وأُم ، ومع رقة حالها منحها الله أُنوثة نادرة ، تحبُك الملاية اللف على جسدها وعلى رأسها منديل محلى بالترتر والخرز وعلى صدرها متسع لعقد ملون يخلب الألباب مما أثار غيرة زوجها غيرة أسعدتها كثيراً ، تسعد بخضوعها له فهو الأسد حين يزأر وهي زينب حين تخضع ، كان الغموض شيء محير في شخصية محمد أطاح بعقلها فكانت له حياته الخاصة بعيداً عن الطعام والشراب وعلاقة الفراش التي لم يقصر فيها أبداً حتى أنها كانت تنتظرها بفارغ الصبر من يوم لآخر ، اعتاد الخروج كل ليلة عقب عودته من الجريدة وفي مقهى الأزهار بشارع توفيق طاب له لعب الورق مع أصدقائه من شباب شارع ابراهيم وميدان الجامع والمناطق المجاورة وفي نهاية السهرة يعرّج إلى محل الخواجة آفو يسترجع معه أيام عشر سنوات مضت يتجاذبا أطراف الحديث بين طعام وشراب فلم يكن آفو ولا المحل غرباء عنه ثم يعود مترجلاً إلى شقته بشارع هارون ، تستيقظ زينب من غفوتها فلا تكاد تعرف النوم ومحمد خارج البيت ، لتستمر الحياة بين بيت زينب وبيت الست منيرة فقد دأبت على زيارتها والاطمئنان على جميل بك ، لم تنس ما أسداه إليها من معروف ، وكيف حافظ عليها كابنته ، سألها في قلق :

- ماذا عن محمد ؟

- الحمد لله بخير .

- وماذا عن عمله في الجريدة ؟ سيكون له مستقبل كبير إن شاء الله ، كيف حاله معك ؟

- الحمد لله ، لكن هناك شيء لا أفهمه .

- كيف ؟

- هو كتوم بطبعه وله حياته الخاصة وأخاف أن أسأله حتى لا يغضب ..

- لم أفهمك !

- يسهر كثيراً خارج البيت .

التفتت الست منيرة :

- تغارين عليه ؟

- نعم ، وهل في ذلك عيب ؟

- معك كل الحق ، ربنا يسعدكما .

- ليست الغيرة وحدها ، مصروفاتنا محدودة جداً في البيت وقد صارحني بحقيقة راتبه التي تكفي وزيادة لكن الفلوس معه تتبخر في أيام ولا أعرف كيف !

بدت علامات الأسى على وجه جميل بك وهو يدس في يد زينب مبلغاً من المال :

- دبري نفسك يا زينب وإذا احتجت شيء فهذا بيتك ولن نتخلى عنك أبداً أما محمد فسيكون لي معه شأن آخر.

- أرجو ألا تخبره بحديثي معكم ، ما جئت إلا لأطمئن على الست منيرة .

لم تغادر زينب البيت بل صعدت إلى سطح المنزل حيث حجرة الست حليمة وقد بدت عليها آثار التعب وهى تعد طعام الغذاء لعطية وفاضل ، اعتاد أحدهم المرور عصر كل يوم ليحمل الطعام له ولإخيه ، ومن هناك انطلقت إلى الشارع مروراً بمحل الحاج حامد الذي عاد منذ أيام قليلة من الحجاز لتمضي في طريقها سيراً على الأقدام حتى وصلت إلى ميدان الجامع ومنه اتجهت إلى شارع هارون حيث تقيم ، دار في رأسها كل ما ذكرته عن زوجها عند جميل بك ومنيرة هانم فهم لها بمثابة الأم والأب ومحمد زوجها ولا يمكن أن تعيش بعيدة عنه ، فهو الذي جعل منها امرأة وأشعرها بهويتها الحقيقية ، لم يكن ما ذكرته بمثابة شكوى وإنما نوع من القلق والخوف عليه من أصدقاء السوء ومن النساء أيضاً فلن تكذب على نفسها ، محمد لم يتغير ولا يبدو له تغيير في المستقبل القريب وهي لا تجرؤ أن تفاتحه في مصروف البيت ، مازال يعود من المقهى في ساعة متأخرة ليتدهور الحال أكثر وأكثر فلم يكتف بلعب الورق بل تخطاه إلى الرهان على سباق الخيل أملاً في أن يربح مالاً يعوضه عما ينفقه كل شهر في لعب الورق وزينب لا تعرف إلا الخيل التي تراها في الشوارع والطرقات ، غرّته الأماني فكان يحيا حياة العظماء رغم أنه لم يتعلم بالقدر الكافي فكان لا يجيد الكتابة أما القراءة فكان قارئاً جيداً لكل الصحف خاصة صحيفة الأهرام وجريدة شمس النهار ، وسامته جنت عليه كثيراً بعد أن رأى ذاته في مرآة الوجود ، لا يعجبه أحداً ، يرتدي أفخر أنواع البدل والأحذية مهيب الطلعة لا تخطأه أعين النساء ممن في قلوبهن مرض ويعمل له الرجال ألف حساب ، استمرت حياته متنقلاً بين البيت وبين المقهى وبين الجريدة وكذلك زينب لم تبرح بيتها إلا للاطمئنان على الست منيرة والست حليمة التي راحت تسألها في قلق ولهفة عن أخبار الحمل ومتى تصبح أُما وهى تردد : كل شيء بإرادة الله وحليمة تحثها على الحمل بنبرة يشوبها اللوم حتى تستقر حياتها مع محمد فالأطفال يربطون الرجل بالبيت وبالزوجة أكثر وأكثر وعليها أن تدرك ذلك إن كانت تريد أن تستمر حياتها بلا متاعب .

وقعت زينب في حيرة وتناوبت عليها الهواجس ولم تعد تدري ماذا تفعل أكثر مما تفعله هى وغيرها من النساء في الفراش ، سألت الست حليمة عما إذا كانت هناك وصفة للحمل لاستعانت بها فالأمر ليس بيدها ، ومع الشعور بالقلق واستمرار العلاقة شعرت زينب ببوادر الحمل فانطلق وجهها مستبشراً وراحت تنقل البشارة إلى زوجها الذي لم يعر الأمر اهتماماً فسباق الخيل ولعب الورق أخذه بعيداً والمباراة الليلة حامية الوطيس ربما ربح مبلغاً من المال هو أحوج ما يكون إليه لتعويض خساراته المتتالية ، امتدت أشهر الحمل وقد حرصت زينب على زيارة حليمة في حجرتها بعد المرور على جميل بك ، صعدت إلى السطح وبصوت المنتصر أخبرت حليمة بنبأ حملها ففرحت فرحاً شديداً فسوف تصبح جدة للمرة الثانية بعد أن أنجبت ابنتها آمنة طفلين توأماً ، الحجرة كانت مقلوبة رأساً على عقب تأهباً للانتقال إلى شقة صغيرة في منطقة سراي القبة القريبة من روكسي ومعها ولداها ، لم تعد الحجرة مناسبة وعطية يستعد للزواج من ابنة أحد التجار ولسوف ينتقل إلى بيتها ليعيش في حي المرج .

عطية أكبر أخويه وأصغرهم تصرفاً مع أُمه ،غريب الأطوار لا يمكن أن تقرأ ملامحه ، بخيل قصير القامة بشكل ملحوظ ، بخيل على أُمه فكان لا يعطيها إلا القليل ، كثيراً ما كانت تشكوه إلى أخويه ، يضع القرش بجوار الآخر ليكوّن بيتاً ، ومحمد على النقيض منه حنوناً باراً بأمه ، استراحت له ولكلامه كما استراحت لزينب ودعت لها أن يكمل حملها على خير فلم يبق إلا بضعة أشهر وتصبح أُماً ، وفي غضون أيام قليلة انتقلت حليمة إلى شقتها الجديدة بمنطقة سراي القبة ومعها فاضل وعطية الذي عقد قرانه على فاطمة المرجاوية وانتقل ليعيش في بيتها رغم قدرته على استئجار سكن مستقل لتستمر حياته بين بيته وبين عمله في محل الخضروات مع فاضل الذي ظل فترة دون زواج لم تخلو من مشاغبات مع زبائن المحل من النساء لكنها أبداً لم ترق إلى مشاغبات محمد ولا حتى وسامته فقد غلب على فاضل وعطية طباع الصعيد في اللغة والملابس والتصرفات حتى طريقة السير والاندفاع الأهوج غير المحسوب ، محمد مثلهم من الجنوب جاء لكنه شخص آخر في ملابس عصرية تناسب المصريين والأجانب حتى لهجته

تغيرت تماماً ، يتحدث بها أحياناً على سبيل السخرية منهم ومن جمودهم ، ثلاثة أشقاء لهم طباع مختلفة ، لم يكن فاضل أفضلهم ، ماكر في ذكاء حريص على كسب المال وإنفاقه ، لم يبخل على نفسه لكنه بخل على أُمه وقد تحدث معه محمد في هذا الشأن وكذلك تحدث إليه عطية واتفقوا على تخصيص مبلغاً من المال لأمهم كل شهر لتنفق منه على نفسها ظل الاتفاق سارياً يتعثر حيناً ويستمر أحياناً وزينب بين هذا وذاك تنتظر لحظة الميلاد .

5

مرت الأيام وزينب تنتظر اللحظة التي تنتظرها كل امرأة ، لن تكتمل أُنوثتها دون أُمومة ، تاقت إلى الأمومة ، كم راودتها في أحلامها أن تكون أُماً لطفل من دمها ، ثقلت حركتها بعد أن زاد وزنها ويوماً بعد يوم انتفخ بطنها وتغيرت مشيتها فمالت إلى الخلف قليلاً وتورمت قدماها أيضاً وتغير شكل أنفها حتى شعرت بالقلق وراحت تسأل جيرانها اللواتي حملن من قبلها عن سر تلك الأعراض ، منهن من بشرتها بأن المولود ذكر ومنهن من كان لها رأي آخر وزينب بين هذا وذاك تقف أمام المرآة طويلاً تلاحظ ما تغير منها وتعد الأيام وتستحثها على المضي قدماً ، في ذلك الصباح بدت ملامح الألم على وجهها ، عضت على شفتيها في محاولة للتحمل وحتى لا تزعج زوجها المشغول دائماً بلعب الورق وسباق الخيل وزينب في سباق مع الزمن حتى تضع مولودها وتضع حداً للألم ، غادر محمد إلى عمله دون أن يسأل ما بها مما أغضبها لكنها لا تملك الجرأة على إظهار الغضب وكيف لها وهي تتمنى رضاه ، لم تتحمل الألم وانطلقت صرخاتها مع صوت المؤذن إيذاناً بحياة جديدة ، حملها الجيران إلى المستشفي القريب من بيت الست منيرة وهناك طغى عليها شعور الأمومة ولم تشعر بنفسها ولم تفق إلا على صرخات وليدها الوافد الجديد إلى الدنيا سعد محمد شعيب هكذا نطقت باسمه شهادة الميلاد ، تأملها محمد جيداً وغشيه الفرح فقد أصبح أباً لأول مرة ، إحساس لم يجربه من قبل ، ربما اتفق أو اختلف مع إحساس زينب لكنه في كل الأحوال إحساس مختلف ، والحقيقة كانت ثورة يوليو فاتحة خير على زينب فقد أنجبت ابنها مع بداية الثورة وتطلعت إلى إنجاب طفل آخر بينما محمد مشغول بعمله وأصدقاء المقهي ومن فاز في سباق الخيل ومن أخفق ، قليل الحظ كان لكنه عنيد ، ورث عادة الأخذ بالثأر عن أجداده في صعيد مصر لكن الثأر هنا مختلف فمن غير المعقول أن يقتل من كان سبباً في خسارته وعليه أن يواصل اللعب والرهان معتمداً على الحظ لا على القوة والمهارة وهكذا مضت حياته من خسارة إلى أخرى ، أحياناً كثيرة يعود إلى بيته خالي الوفاض بعد صرف راتبه بأيام قليلة وزينب تندب حظها وتشكو إلى أُمه التي تهديء من روعها ، فقد زادت المصروفات ولم تعد تكفي إلا بالكاد ومحمد يبدو مهموماً عقب كل خسارة وهي لا تجرؤ على سؤاله ، حتى أُمه لم تملك الجرأة على مواجهته إلا بالتلميح بأنه أصبح اليوم أباً وعليه الاهتمام بابنه مع توصيته بزينب استمع محمد إلى أُمه وساوره الشك في زينب ، ربما شكت لأمه ضيق الحال ، فراح يطمئنها ويعدها بأن الأيام القادمة أفضل وهى تنصت إليه وتدعو له في رجاء .

توطدت العلاقة بين حليمة وبين زينب ، ارتاحت إليها في الحديث والإقامة والطعام والشراب فكانت موضع أسرارها والحقيقة لم يكن لأي منهما أسرار إلا أشياء بسيطة ، حدثتها عن أحلامها المتواضعة ورغبتها في أن تصبح أُماً لأكبر عدد من الأطفال ، تريد أن تصبح أُماً لثلاث ، لقد أنجبت طفلها الأول وبقي اثنان وحليمة تدعو لها بالخير فهي تختلف بالطبع عن فاطمة المرجاوية التي تكره حليمة بلا سبب .

أقام عطية في بيتها على غير رغبة أُمه وأخويه بعد أن وطّد علاقته بوالدها حسنى المرجاوي تاجر الفاكهة القادم من محافظة القليوبية وبمنطقة المرج أقام بيتاً له ولأولاده ومنهم فاطمة التي أحالت حياة عطية إلى جحيم ذكّرته بفقر أُسرته وإنه لولاها ما تزوج ولا كان له بيت ذكّرته أيضاً بفضل أبيها عليه وعطية يقف أمامها مسلوب الإرادة ، إذا جلس ملأ كرسيه ، ثقيل الوزن كسول إلى درجة مستفزة ، لا يجد نفسه إلا في الفراش فتستسلم له وما إن يحل الصباح حتى تتحول إلى امرأة أُخرى ذات أنياب ومخالب ولسان أطول من زوجها الذي اشتهر بقصر قامته وهو لا يشكو ولا ينفعل حرصاً على مشاعر حسني المرجاوي لتستمر حياته بين بيت المرج

وبين محل الخضروات مع فاضل الذي تطلع للزواج هو الآخر ، لم يجد أمامه إلا ابنة شيخ الخفر سعدية ، فتاة من الوزن الثقيل ، يميل إلى ذلك النوع من النساء ، ملأت عقله وقلبه وكل جوارحه ، لم يضيّع الوقت في المهاترات وبصورة مفاجئة تحدث إلى أبيها في موضوع الزواج وخلال أشهر قليلة انتقل معها إلى حجرة صغيرة في منطقة سراي القبة القريبة من بيت أمه ومن بيت شقيقه محمد ومن المحل أيضاً لتبدأ مرحلة جديدة في حياة أصغر أبنائها ، أصبح لكل منهم بيت وزوجة لكن قلبها مُعلق بزينب وبيتها ، تناهت أخبار المشاكل بين عطية وبين زوجته إلى أسماع حليمة وزينب وزوجها وكذلك فاضل وزوجته فكان لكل منهم رأي وقد اتفقوا جميعاً على أن يكون لعطية سكناً مستقلاً وعلى فاطمة أن تقرر إن كانت تريد العيش معه أو الخروج من حياتهم بالمعروف أما المعايرة المستمرة والاستقواء بأهلها فأمر غير لائق ، لم يكن عطية بريئاً فيما وصل إليه من حال فكان تواكله وكسله وربما طمعه ما قاده إلى هذا المصير ، الفقر ليس عيباً وعليه أن يتذكر كيف جاءت أُمه وأخويه من الجنوب إلى القاهرة بلا مأوي أو عنوان وكيف تغير الحال ، تشاورت حليمة مع أولادها فقد كان محّرم عليها دخول بيت عطية ، في نظرها ليس له بيت ، تشاور فاضل مع شقيقه في ضرورة إيجاد حل في أقرب وقت ، في تلك الفترة من نهاية الخمسينيات كانت الشقق والبيوت متاحة بأقل القليل ، اقترح فاضل على عطية شراء قطعة أرض بمنطقة الزيتون على أن تكون مشاركة فيما بينهما في الثمن وفي البناء وبعد ستة أشهر من الشراء أقاموا عليها بيتاً من طابق واحد ، شقة على اليمن أقام بها فاضل ومثلها على اليسار انتقل إليها عطية مع زوجته وبذلك تشارك عطية وفاضل في البيت وفي محل الخضروات أما محمد فقد استقر به الحال مع زينب وابنه في شقته بشارع هارون الرشيد ومن حين لآخر يمر على أُمه في شقتها إذ كانت تقيم بمفردها بعد زواج فاضل ، تتنقل بين بيت زينب وبيت فاضل وعطية الذي دعاها للإقامة معه حتى يطمئن قلبه من ناحيتها ربما احتاجت شيئاً وقد تقدم بها العمر ، انتقلت حليمة لتعيش مع ابنها عطية في شقته أما زينب فراحت تتطلع لإنجاب طفل آخر يربطها بزوجها أكثر ربما شعر بالمسؤولية وأقلع عن لعب الورق فلم تعد شكواها إلى أُمه كافية ولا إلى الست منيرة التي كانت تمدها ببعض المال بين الحين والآخر لم تسترح حليمة في بيت عطية ولا استراحت مع فاضل وزوجته ، حتى فاطمة شعرت بالإغتراب في بيت زوجها بعيداً عن بيت أبيها وكثيراً ما وقع الشجار بينهما بسبب الأطفال بعد أن أنجبت فاطمة طفلين وكذلك سعدية أنجبت من الأطفال ثلاثة ، كذلك لم تسلم حليمة من تجاوز فاضل في حقها فلا يدعوها إلى الطعام مؤثراً زوجته عليها فتهرع إلى زينب تشكو إليها فيربت محمد على كتفيها ويدعوها في رجاء أن تقيم معه ، على الأقل تؤنس زوجته في متاعبها وتهوّن عليها آلام الحمل وضعت زينب مولودها الثاني ، أسمته سيد على اسم طبيب المستشفى لتمضي حياتها مع زوجها سنوات وسنوات وقد اطمأن قلبها بعد ما أصبح لها من الأولاد ثلاث آخرهم محمود ، لم يعبأ محمد بأولاده وترك رعايتهم لزوجته وقضى معظم وقته بين عمله في الجريدة ولعب الورق وسباق الخيل وقد تمادى في علاقات نسائية متعددة وطالت فترات غيابه عن بيته وازداد الحال سوءاً مما اضطره إلى الإستدانة ، وفي مرحلة تالية باع أثاث البيت ليسد ديون عليه تراكمت وأصبح محل البقالة المجاور مصدر إعاشة لمحمد وأُسرته على أن يسدد ما أخذه بالأجل من مرتب الشهر ، لم تتصور زينب ذلك في أحلك لحظات حياتها ، فهي من أُسرة تكاد تكون معدمة ، مات أبواها في مرحلة مبكرة من طفولتها فلمن تشكو وإلى أين تذهب ومن أين يأكل هؤلاء الأطفال !

عاد محمد من عمله خالي الوفاض بعد محاولة الثأر ممن هزمه في عشرات الجولات السابقة في لعب الورق ولكن هيهات ، ولدى الباب وجد البقال في انتظاره يحدق في أولاده ، خشيت زينب عليهم من البقال أن يأخذهم رهائن لحين سداد ما عليهم ، حملتهم بعيداً وقدمت إلى البقال سجادة جديدة كانت قد اشترتها بالتقسيط لتقيهم برد الشتاء التفتت زينب إلى زوجها :

- إن شاء الله ربنا يدبرها .

- من الغد سأحاول التصرف في بعض الأشياء .

لم تكن هناك أشياء تذكر فقد خلت الشقة تقريباً إلا من بعض الأثاث وفراش لا قيمة له ، ازدادت الحياة صعوبة ولم يعد أمام محمد إلا أُمه ، ذهب إليها على استحياء كذلك ذهبت زينب إلى جميل بك والست منيرة

6

جميل بك ذو الأُصول الشركسية استشاط غضباً واحمّر وجهه وهو يستمع إلى زينب وشكوتها من زوجها وتماديه فى لعب الورق والرهان على الخيل في سباقات لا ناقة لهم فيها ولا جمل وإنما روح الثأر والرغبة في تعويض ما خسره على الطاولة وفي مضمار السباق كانت دافعه الأول للاستمرار ، أموال كثيرة كانت تكفي أولادها وتجنبهم ما تعرضوا له من حرمان ، أنفقها كل شهر طواعية في انتظار راتب الشهر الذي يليه ربما عوّض ما فاته ، وما زاد الطين بله أن توجه إلى مجال آخر يشبه القمار غير أنه محاط بإطار يدعو إلى الخير فكانت أوراق اليانصيب التى تدر ربحاً على سعيد الحظ ومما يتم تحصيله من أموال يخصص جزءاً للفقراء وبناء المستشفيات ، وجد محمد ضالته في هذا النوع من النشاط ربما عوّض جزءاً مما خسره من أموال فامتلأت جيوب سترته بأوراق شتى ذات فئات مالية متعددة ، أطرقت منيرة بوجهها ولم تعرف كيف تواجه محمد بموقفه فأشارت على زوجها أن يوبخه ويعنفه فزينب أمانة في عنقه وكذلك أولاده انصرفت زينب ومنيرة تضع في يدها بعض المال وقطعة قماش وطرحة بينما تربت على كتفيها ، تعثرت زينب في خطواتها وكلامها لكنّ عينيها الدامعتين عبّرت عما هو أكثر ، كذلك الست حليمة أبدت غضبها الشديد ومحمد يجلس في مواجهتها :

- يا أخي حرام عليك بنات الناس ، أولادك أمانة في رقبتك وكذلك زينب ..

صمت محمد ولم ينبس وواصلت حليمة تأنيبها :

- أنت أفضل أخويك ولديك وظيفة وصنعة ، لن يساعدك أحد ولا تنتظر من أخويك شيئاً .

لم يتحمل كلام أُمه ولومها وقد دارت به الدنيا وغادر على وعد بالإنقطاع عن لعب الورق ولكن هيهات أن يفعل لتمضي الحياة بزينب مع أولادها فهي لا تملك أي قرار وليس لها في الدنيا غير أولادها وشقيقتها التي سبقتها بالزواج في قريتها بكفر الزيات ، لا تعرف إن كانت ماتت أو مازالت على قيد الحياة فقد تركت زينب منزل الست منيرة منذ أكثر من عشر سنوات ، ومنذ ذلك الحين والصلة منقطعة بينها وبين شقيقتها خديجة لم يبق أمامها إلا الإستمرار، كذلك استمر زوجها في لعب الورق متطلعاً إلى الربح فتنتظره الخسارة مما كان له أبلغ الأثر على حياة الأولاد فلم يعرفوا أنواع الطعام كما عرفه أولاد الجيران ، تعرفوا عليه من ذاكرة الأنف والرائحة بشكل لا ارادي يوماً بعد يوم يستيقظون من نومهم مرغمين ورائحة التبول اللا إرادي تصحبهم من أثر البرد ، كل شيء في البيت يتم بصورة عشوائية ، اضطرت زينب لحماية أولادها من البرد أن تخلع باب المطبخ وتضع أسفله بعض الأحجار ليرتفع عن الأرض قليلاً ليكون بديلاً عن السرير الذي كان ، مشروع سرير فرح به الأولاد كثيراً وهم يتقلبون على مراتب محشوة بالقش ، فكرة عبقرية ابتكرتها ظلت عالقة في خيالها سنوات طويلة ، لقد انتهى عهد النوم على الأسرّة وقت أن كان محمداً قادراً على ذلك ،عاشت مع أولادها على طعام واحد من البطاطس والخبز وبعض الجبن وبقايا أطعمة تفوح رائحتها من عند الجيران ، أطفال زينب كغيرهم من الأطفال تطلّعوا إلى ما حولهم من أطفال وآباء وأُمهات وأشجار وأعمدة إنارة تطلّعوا بأعينهم دون البوح فالأسئلة لديهم لم تكتمل ، يكبرون مع الأيام وتكثر لديهم الأسئلة وزينب لا تكتمل سعادتها إلا معهم ، أما حبها لمحمد فكان حباً نادراً في الخضوع والعطف الوحيد الذي أشعرها بأنوثتها بحق وهى مدينة له بكل مشاعرها فهو قائد ثورتها ومفجّرها الأول غيّر حياتها وقلبها رأساً على عقب لكنه عاجز عن تغيير نفسه حسب زينب أنها معه ولها من الأولاد ثلاث سيد ومحمود وسعد أكبرهم ، بينه وبين أبيه علاقة خاصة لاحظتها في عين

زوجها وهو يحمله ويتأمله ثم يبعده قليلاً ثم يعاود النظر إليه ، تساءلت زينب في قرار نفسها : هل انتابت زوجها أحلام اليقظة ، بدا شارداً وهو ينظر لابنه ، وكثيراً ما تراءى له من على البعد قادم يرتمي في أحضانه وقد ارتدى بدلة ضابط ، حتى لو كانت أحلام يقظة فقد كانت كافية لزرع الأمل فيه ربما أصبح ضابطاً في يوم من الأيام ، عاش محمد لذلك اليوم ، يشكر الله كلما مرت ورطة أو انتهت أزمة مع البقال أوغيره من المتعاملين معه فيكثر من ذكر الله مع أنه لم يصل يوماً أو يصم فشهادة الناس له بالطيبة والكرم كانت تكفيه مع بعض أحجار الشيشة وطاولة القمار وأولاده في نمو مستمر ، لم يقصّر في عمله بالجريدة كمصور فني فأحرز تقدماً ملحوظاً نال به إعجاب رؤسائه وتحسنت حالته قليلاً فأعاد باب المطبخ إلى مكانه واستبدله بسرير حديدي له و لزينب وعدد من الأرائك نام عليها أولاده ومع تقدم العمر تلاشت رائحة التبول قليلاً وتغير الحال إلى الأفضل ، كان للبطاطس في حياة الأسرة مفعول السحر والانتقال إلى عالم الفول والطعمية والجبن وبعض الأسماك المملحة مثل لهم ذلك نقلة حضارية تخطوا به العيش على ما يقدمه الجيران إلى مرحلة الشراء فالبطاطس زهيدة الثمن ولها الفضل في إبراز مواهب الأم في الطهي ورغم ما كانت تعيشه الأسرة من ظروف إلا أن محمد حرص على تعليم أولاده فألحقهم بالمدرسة الابتدائية الواحد تلو الآخر وكان عليه تدبير نفقات التعليم.

لشقة زينب موقع متميز فهى في الطابق الأرضي تطل على بيت ذي حديقة لها خفير وله زوجة تهوى تربية الطيور، على صوت ديكة الفجر والبط والأوز تستيقظ وأولادها وآذان من الله أكبر لم يحرك فيهم ساكناً إلا من أشواق دفينة وأحلام سعيدة وطموحات كبيرة فبدا اشتياقهم على وجوههم عذابات كبيرة ، شعرت زينب بما يعتمل في نفوس أولادها وكان قد مر قرابة العام لم تذق فيها الأسرة طعم اللحم بل كانت رائحته تنسل إلى أنوفهم رغماً عنهم ، تعذبهم وتوقظ فيهم آمال وأشواق فيترنحون من فرط النشوة متطلعين إلى ذلك الشيء الغامض ، تراءى لزينب منظر الطيور كلوحة سيريالية أبدعها فنان عظيم راحت تتأملها بين النوم واليقظة فهى قليلة النوم تنتفض من نومها على أقل همسة وكثيراً ما كانت تجلس بمفردها عند الفجر .

أطفال زينب كغيرهم ولكن ليس كل الأطفال سواء يحملون على أكتافهم كتبهم وكراساتهم وبعض الأقلام داخل كيس من نفس قماش المريلة ، أما الجوارب الممزقة فكانت القاسم المشترك فيما بينهم داخل أحذية مهترئة يطأون بها أرض الواقع ، ما إن اقتربوا من باب البيت الخارجي حتى لفّهم الدوار وتلعثمت خطواتهم ، شيء غريب يحدث لم يعتادوه في البيت نظر بعضهم إلى بعض يتساءلون ،المكان مغطى بسحابة مختلطة برائحة ذكية وأصوات تنم عن شواء أو تحمير ، سمعها الأولاد جيداً ، لم تخطأها آذانهم كما لم تخطيء صوت أبيهم المرتفع على غير عادته تشاغل بقراءة الجريدة ريثما تنتهي زوجته من إعداد الطعام والأولاد في حيرة تتساءل أعينهم في صمت .

حانت ساعة الصفر ووضعت الطبلية وجيء بالبط في صينية ليستقر في المنتصف ودارت الأطباق ومعها الرؤوس ومازال الأولاد في ذهول ، لم يجرؤ أحدهم على السؤال ، الطبلية أقرب ما تكون إلى ساحة قتال لحظات وأفاق الجميع على صرخات ملأت الدنيا نفيسة زوجة عبد السميع خفير الفيللا المجاورة صرخت بأعلى صوتها تنعي ذكر البط الذي تبخر كالأحلام ، من كان يظن أنها ستفقده أو يلقي حتفه ؟ أخذ الخفير يواسي زوجته ويشد من أذرها إلا أن رائحة البط سرت في جنبات البيت وتجاوزته إلى البيوت المجاورة ، رائحة لم يخطأها أنف نفيسة .

خرجت زينب وزوجها وأولادها يستطلعون الأمر في براءة وفي أفواههم بقايا طعام يلوكونه ، ما إن رأتهم نفيسة حتى انطلق لسانها وهي توجه أصابع الإتهام إلى زينب التي أنكرت وأشاحت بوجهها بعيداً وقد امتلأت عينيها بدموع حبيسة ، أدركها عبد السميع فنهر زوجته مذكراً إياها بأن العوض على الله .

ظلت زينب ولأيام طويلة مؤرقة لا تعرف النوم ، حالة من القلق انتابتها ، ربما كان إحساس بالذنب طاردها في منامها ، لكنها فعلت ما فعلته مرغمة هكذا كانت ترى ، وفي الوقت ذاته تعلم

تماماً ولو بالفطرة إن ما قامت به حرام شرعاً ، ماذا تفعل وأولادها يتطلعون في لهفة إلى رائحة الطعام ، ضعفت كما ضعف أولادها وتوقفت طويلاً أمام الدعم الذي قدمه لها زوجها بسكوته وصمته المريب ، لم تُدرك وقتها موقف زوجها بالتحديد ، هل أراد تعويض خسارته في لعب الورق فثأر من نفيسة زوجة الخفير أم أراد أن يثأر من المجتمع في شخص نفيسة ؟

7

تظاهرت زينب بالنسيان ولكن هيهات أن تنسى عاشت المرحلة بكل جوارحها ولم يعد أمامها إلا أولادها والأمل المعقود عليهم وأحلام يقظة تعاود زوجها حيناً بعد حين وهو يُذكّر ابنه وأمله الكبير أن يصبح ضابطاً بالجيش ، جمال عبد الناصر كان أبوه موظفاً بسيطاً كذلك السادات وكل أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو من أبناء الشعب الفقير ، خرج منهم من حقق استقلال الوطن فلماذا لا يكون ابنه ضابطاً ! حاول محمد شعيب أن يعيش حياته رغم لمحة إنكسار استقرت في عينيه ، حاول أن يداريها حتى لا تصل إلى أولاده خاصة ابنه البكري ، اقترب منه مربتاً على كتفه : غداً ستكبر وتصبح ضابطاً ، ثم يشير إلى أصغر أولاده : سيكون لك شأناً كبيراً .
التفت الأسرة على طعام من جبن وبعض الجرجير وتناوبت الأيدي في صمت يميناً ويساراً إلا يد محمد ، فقد توقف عن البلع وعن الكلام ولم يبق إلا الصمت ودموع حائرة لمحتها زينب في عينيه ، ردت عليها بدموع ولهفة :
- ماذا جرى؟ إن شاء الله تتحسن الأحوال ، وحد الله يا أبا سعد ، من غيرك لا نساوي شيئاً .
انسابت دموع محمد ببطء، أما الأولاد فلم يدركوا العلاقة بين دموع أبيهم وبين حادثة ذكر البط .
كانت حليمة الملاذ الأخير لزينب تلجأ إليها كلما استبد بها الأسى ، تشكو لها ولا تنتظر شيئاً بعد الشكوى مجرد فضفضة ترتاح بعدها وتزيح عن صدرها هماً كبيراً ، كذلك كانت حليمة دائمة الشكوى من ابنها فاضل ، لا يسأل عنها وكذلك زوجته ، فارق كبير بين معاملة فاضل وبين معاملة محمد أما عطية فقد فضّل الإقامة بشقته في الطابق الأول المواجهه لشقة أخيه أنجب عطية من الأولاد خمسة كذلك فاضل أنجب أربعة ما بين ذكور وإناث وقد تبارى الإثنان في إنجاب الأطفال بدافع من الغيرة بين زوجتيهما ، ورغم فقر حليمة وأولادها إلا أنهم آمنوا بالتعليم وأهميته فحرص كل من محمد وأخويه على إلحاق أولادهم بالمدارس والجدة حليمة تسعد كلما اجتاز أحدهم مرحلة من مراحل التعليم .
في حي الزيتون محل فاضل وأخيه ، تقاسمه الإثنان كما تقاسما البيت ، اتسع نشاط المحل شيئاً فشيئاً بفضل علاقات فاضل الواسعة فكان المتعهد الوحيد لتوريد الخضروات والفاكهة لعدد من الشركات الواقعة في دائرة الحي ، نشيطاً محباً للحياة وللنساء بنفس القدر فتعددت علاقاته واكتفى بزوجة واحدة عاش معها في الحلال وعدد من النساء يعاشرهن بالمعروف بلا زواج أما عطية فكان شغوفاً بزوجته المرجاوية ، أنجب منها بنتين ومن الذكور سبعة آخرين مما أثار غيرة سعدية في المحل اكتفي بدور العامل الأجير ، كسول بلا أدنى طموح ، ترك أخاه للنشاط الخارجي وتولى الإنفاق على أولاده من خزينة المحل ، لم يتوقف كثيراً أمام يده وهى تمتد لموضع حصيلة البيع ، درج صغير ، تمتد إليه يده كلما احتاج ما ينفقه على أولاده وشراء زجاجة خمر من النوع الرديء لينسى نصف همومه أما النصف الآخر فزوجته المرجاوية كفيلة به ، لم يعرف تنظيم الأسرة وكلما نصحه أحدهم ردد : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .
وبشكل لا إرادي حرص أبناء حليمة على السكني في أماكن متقاربة بقدر الإمكان فمحمد يقيم بمصر الجديدة وفاضل وعطية يقيمان في بيتهما بحي الزيتون فضّلت حليمة الإقامة مع عطية لرعاية أبناءه وزوجته التي أرهقتها كثرة الإنجاب ، لقد اختلط عمر حليمة بعمر أولادها وأحفادها وقد أصبحت جدة ربما للمرة السابعة عشر، تتابع أخبارهم بين الحين والحين ، لم

يدرك أحدهم كم مر من العمر إلا من خلال شعيرات بيضاء لاحظتها زينب تزين شعر زوجها ، شيء طبيعي فالوقت يمر بنا مرغمين ، سعد الآن يقف على أعتاب المرحلة الإعدادية يتطلع إلى أمه وجدته وهن يرفعن أكف الضراعة ليجتاز تلك المرحلة ربما حقق أمنية أبيه أما زينب فقد نذرت لله نذراً ، إذا نجح سعد ستذبح له ذكر بط ، شردت قليلاً وعادت بالذاكرة لأيام مضت وهي تردد هامسة : الله لا يعودها .

لم تكف عن الدعاء لابنها، لكن هذا الشبل من ذاك الأسد ، فعلى الرغم من صغر سنه إلا أنه عرف أصدقاء السوء كما عرف التدخين بعيداً عن أُسرته فكان من أصدقائه من يكبره بعدة أعوام وإليهم يرجع الفضل في تحديد معالم الطريق نحو الساقطات ، أُعلنت نتيجة الشهادة الإعداية ولم يكن غريباً أن يتصدر اسمه أسماء الراسبين ، تغيرت شخصية سعد بعد رسوبه المتكرر فبعد أن كان يتحسس طريقه نحو النساء في الخيال ، لم يعد الخيال يكفيه مع ما فيه من براح وتنوع وكاد أن يترك الدراسة بشكل نهائي بل تركها والتحق ببعض الأعمال ليساعد أباه في تربية أخويه فالنفقات والمتطلبات زادت عن ذي قبل حتى استقر في النهاية في محل الخضروات مع عميه عطية وفاضل ، كبر الأبناء وزادت تكاليف المعيشة مع زيادة مرتب محمد الحائر بين طاولة القمار وسباق الخيل وأوراق اليانصيب التي تبشر الكسالى بربح وفير في الدنيا لم يتحقق لمحمد ولو مرة واحدة ، وما يتبقى من راتبه يلقيه لزوجته لتدبر حياتها مع أولادها ، ورغم كل شيء وما وصل إليه سعد من تكرار رسوبه لم يفقد محمد الأمل تطلع إلى اليوم الذي يراه فيه ضابطاً والناس يشيرون إليه ، كذلك توسم في ابنه محمود أن يكون صحفياً نابهاً أما الابن الأوسط سيد فقد رأى فيه مدرساً لما يتمتع به من هدوء وحرص وانتظام في الدراسة ، هكذا كان لأحلام اليقظة دور كبير في حياته ، حاول أن يكون مقلّاً في لعب الورق وارتياد المقاهي بعد أن التحق باستوديو للتصوير سعياً إلى زيادة دخله فتحسن الحال قليلاً ُ لينمو الأمل داخله أكثر في أن يصبح ابنه البكري ضابطاً بالجيش وكلما سأله زملاؤه عن أخباره طمأنهم بنجاحه عاماً بعد عام فقد اجتاز المرحلة الإعدادية بجدارة فيسارع الزملاء بجمع مبلغاً من المال تشجيعاً لسعد داعين له بالنجاح بينما سعد يتنقل بين أصدقائه بصحبة النساء وتجرع البيرة والسجائر وبين عمله في محل الخضروات ، لقد صدّق محمد نفسه ولم يكّذب أحلامه ففي البيت يعرف ابنه وفي جريدة شمس النهار الأمر اختلف تماماً ، ترقب الزملاء نجاح ابن زميلهم محمد شعيب من سنة إلى أُخرى وقد حرصوا على جمع مبلغاً من المال يقدمونه إليه عقب نجاحه كل عام ، لقد اجتاز هذا العام المرحلة الثانوية وها هو يتأهب للإلتحاق بالكلية الفنية العسكرية .

في الجريدة توسط محمد شعيب زملاءه وهم يحتفلون بنجاح سعد وقد تأهل للالتحاق بالكلية الفنية العسكرية محققاً حلم أبيه الذي تحول إلى وهم كبير عاش فيه وحوّله إلى واقع نقله إلى زملائه فصدقوه ودعوا الله أن يبارك له فيه ليكون ضابطاً يشار إليه بالبنان وقد جمعوا من المال مبلغاً قدموه إليه.

عاد محمد إلى بيته منتشياً ، كاد يفقد وعيه من السعادة وما إن دخل البيت حتى وجد سعد يقف بالباب حاملاً على صدره بطيخة جاء بها من محل الخضروات سعيداً بالعمل عند أعمامه وقد أصبح له دور في حياة أُسرته .

8

استمر فاضل في عمله متنقلاً بين الشركات مورداً للفاكهة والخضروات تاركاً إدارة المحل لعطية فتوسع في البيع والشراء ، لين الجانب طلق اللسان مع كل المتعاملين معه ، أحبه الناس وفضّلوا التعامل معه عن أخيه الذي لاحظ ذلك ونقله إلى زوجته فاشتعل قلبها غيرة وحقداً على عطية وزوجته ومازالت بزوجها حتى اقنعته بضرورة أن يفض الشركة مع أخيه على أن يكون المحل له ولأولاده من بعده ، افتعلت سعدية المعارك مع فاطمة المرجاوية ومع حليمة ، تمن عليها بما تقدمه لها من طعام وعلا صوتها وارتفع بأحط الألفاظ ، لم يجد عطية من يسمع شكواه إلا محمد وكذلك فعلت حليمة ، ضمت شكواها إلى شكوى عطية وزوجته وفي بيت زينب اجتمعوا وأمام عناد فاضل لم يصلوا إلى حل ، لم يكن فاضل رقيق القلب نحو أمه أو شقيقيه ، محباً للفخر كان وللطعام وللنساء يميل بإذنيه ناحية زوجته نهاراً حتى لا تغضبه ليلاً ولو على حساب الحق أو أية قيمة أخرى ، رأت سعدية وهى ترقد بجواره تداعبه وتعبث في أزرار قميصه أن البناء فوق الأرض لا يستقيم من جانب واحد ، فقد بنى فاضل شقتين في الطابق الأرضي وها هو يعتزم بناء شقتين في الطابق الذي يعلوه ، سألته سعدية عن عطية :

- أليس شريكاً لك في الأرض ؟

- بالأمس كان شريكاً أما اليوم فلا يملك ما يبني به ولو نصف شقة !

- وماذا أنت فاعل ؟

- سأعلو في البنيان .

- وماذا عن عطية ؟

- إما أن يبني أو يتركني للبناء ويكتفي هو بشقته فقط .

احتار عطية أمام موقف أخيه فبعد أن أخرجه من المحل يريد الإستيلاء على حصته في البيت وأمام تعنت فاضل لم يكن أمامه إلا البقاء في شقته ، ورغم تدخل حليمة غير مرة أصرّ فاضل على موقفه وتمادى في البنيان وخلال عام ونصف تقريباً ارتفع بالبيت عدة طوابق وعطية قابع في شقته بالطابق الأرضي مع أولاده التسع قليل الحيلة والشقة ضاقت عليهم ولا يملك إلا الشكوى للجيران وأمه وأهل الحي ، شكا لهم ظلم أخيه وضيق الشقة وأن ابنه أحمد مقبل على الزواج فلا أقل من أن يعطيه الشقة المقابلة بالطابق الأرضي وتساءل عطية : كيف لشقيقه أن يفعل ذلك وهم شركاء في الأرض ، اشتروها معاً أيام كانوا فقراء أما اليوم فقد أغناه الله فاستغنى عن أخيه ، أشفقت حليمة على عطية واستجمعت قواها وصعدت الدرج لمقابلة فاضل ومواجهته بالأمر ، ولدى الباب أدعت سعدية أنه نائم ومتعب :

- هو لا يريد مقابلتي !

هب فاضل من نومه منفعلاً :

- ماذا تريدين مني ؟ البيت بيتي ، اشتريته وارتفعت به طابقاً عن طابق ومن لا يعجبه عليه أن يرحل .

- أخوك يرجوك ، لديه من الأبناء تسع .

- ويريد أن ينجب مرة أخرى !

- يسعي لزواج ابنه في شقة الطابق الأرضي المواجهة له ، أعطها له ويبصم لك بالعشرة أن البيت بيتك .

صرخ فاضل في أُمه ودفعها للخارج :
- ماذا تقولين ! إياك أن تتحدثي بهذا الأمر وإن عدت ثانية سأكسر رجلك .
هبطت حليمة الدرج باكية ، شعور بالغيرة انتاب فاضل تجاه أخيه إذ كيف ينجب من الأولاد تسع منهم سبعة ذكور، عزوة له حتى ولو ناموا على الأرض سيصبحون رجال وسند له .
في تلك الليلة لم يستطع عطية النوم لحظة فمال إلى زوجته المرجاوية يستطلع رأيها بفمه فاتفقت الآراء حاول أن يشرح لها موقفه بأن الإنسان جاء إلى الدنيا عارياً وسيخرج منها كذلك فأيدت رأيه بشدة وأقامت له الدليل لكنه فشل في إقناعها المرة تلو المرة ، شعرت فاطمة بالقلق على زوجها وعلى مستقبلها معه فالحياة بين ذراعي عطية هي الجنة ، لم تستطع النوم هى الأخرى مما دفعه للخروج من البيت والجلوس على حجر بجوار الباب وبيده زجاجة خمر ، شرد قليلاً وتناوبت عليه الوساوس أن اقتل أخاك الظالم وتخلص منه ، استعاذ بالله وعاد ليرقد بجوار زوجته .
جلست حليمة بين محمد وزوجته تحكي لهما ما كان من أمر فاضل وكيف أساء إليها وفضّل سعدية عليها ، لقد تغيرت مشاعرها تجاه البيت وتشعر بالضيق كلما وطأته قدماها أما فاضل فهو ابنها ولا يمكن أن تشعر بالضيق منه وإنما من تصرفاته وتفضيله زوجته عليها اقترح محمد أن تعيش معه في شقة مصر الجديدة ورحبت زينب بالفكرة لكن حليمة فضلت الإقامة عند عطية لتساعده في رعاية أولاده خاصة أن أكثرهم مازالوا صغاراً وفي حاجة إلى رعاية وبينما هم كذلك عاد سعد من عمله فسأله أبوه عن عمه فاضل ، وبين شد وجذب دار بين الأشقاء خضع فاضل مرغماً واتفق مع عطية أن الطابق الأرضي المكون من شقتين يكون ملكية خالصة له لا ينازعه فيه أحد ، وافق عطية وأقر بالظلم فهو مضطر أن يزوج ابنه ، كان هذا الإتفاق هو أقصى ما يمكن الوصول إليه مع فاضل الذي تمادى في ظلمه حتى نال من أمه بمنعها من الدخول إلى شقته حتى في أيام الأعياد فطاب لها المقام في بيت زينب ، أحب سعد جدته وارتبط بها كما أحبه أبوه وتمنى أن يكمل تعليمه بعد أن رسب ثلاث مرات في الشهادة الإعدادية وفي السنة الرابعة سدد أبوه المصروفات من حصيلة ما جمعه من زملاءه احتفالاً بحصوله على الثانوية العامة كذب محمد شعيب على زملائه وصدّق ما كان يتمناه لأبنه في أن يصبح ضابطاً ، كره أن يكون راسباً وأولاد زملائه لا يعرفون الرسوب ، لن يكون أقل منهم حتى لو كذب !
واعتماداً على ذاكرة ثلاث سنوات مضت تقدم سعد لامتحان الشهادة الإعدادية وكان أن نجح ، لم يصدق والده نفسه وهو يحتفل للمرة الأولى بنجاح ابنه وراحت زينب وحليمة توزعان شربات النجاح على الجيران واشترت زينب ذكر بط حقيقي كما وعدت من قبل لكن محمد وقع في حيرة بين أن ينقل لزملائه خبر نجاح ابنه في الإعدادية وهذا مستحيل أو يواصل الكذب لينشد الستر ويتجنب الفضيحة ! ارتاح محمد للأمر الثاني وظل الحلم يكبر داخله مع مداومة زملائه على السؤال والاطمئنان على ابنه البكري وكان لابد من إجابة : لقد تخرج سعد في الكلية الفنية العسكرية ضابط مهندس ولابد من تنظيم حفل كبير يليق به وبوالده المكافح المثابر ليعود محمد شعيب في نهاية الحفل منتشياً من جريدة شمس النهار إلى بيته بشارع هارون .
لم يجد الأب بداً من مصارحة ابنه بما كان حتى لا يقع في الفضيحة وأصر على موقفه وهو شارد يفكر في حل أكثر واقعية لهذا المأزق الذي وضعته فيه أحلامه وأمنياته الطيبة واستمرت الحياة رغماً عن الجميع والأيام كانت كفيلة بمداواة الجروح .
في تلك الفترة من أواخر الستينيات كانت أخبار الأعمال البطولية التي يقوم بها رجال الصاعقة ورجال الضفادع البشرية تملأ أرجاء الدنيا بطولة وفخراً وشهدت حرب الاستنزاف بطولات كثيرة في معركة رأس العش وجزيرة شدوان وإغراق المدمرة إيلات وما صاحب ذلك من انتصارات حققتها منظمة التحرير الفلسطينية والتهب حماس الجماهير لتصميم الدولة على الأخذ بالثأر لهزيمة 67، لم يكن الإبن البكري على ما عاش فيه من فقر ورسوبه المتكرر وفشله في تحقيق حلم أبيه بمنأى عما يجري من أحداث فكان يقرأ الصحف ويتابع ما يجري من أعمال

بطولية وما يتردد عن عزم الدولة استعادة الأرض المحتلة وإن ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، كلمة قالها الزعيم جمال عبد الناصر ، استقبلتها قلوب الشباب بحماس شديد وكان قلب سعد أكثر طموحاً ورغبة في المشاركة ففي حرب 67 تطوع في الدفاع المدني وها هو اليوم يقنع والده بالتطوع في الوحدات الخاصة والتشكيلات وزينب لا تدري من أين يأتي ابنها بهذا الكلام ، وجد سعد تشجيعاً من والده وحماس غير مبرر وهو يعلم تماماً أن ابنه من الممكن أن يذهب ولا يعود !

9

بشعور لم يدر محمد مصدره راح يشجع ابنه على التطوع في صفوف الجيش ، أعد أوراقه وفي الموعد المحدد تقدم سعد إلى إدارة التجنيد وهناك وجد ترحيباً وحماساً من الضباط والجنود ، أعجبهم حماسه ووطنيته ورغبته في الثأر من الصهاينة ، ولمدة خمسة وأربعين يوماً كاملة قضاها في التدريبات لم ير سعد أُسرته وكانت أول إجازة له تشبه العيد ، اشتاق لأمه وأبيه وأخويه سيد ومحمود واشتاق أكثر لأبيه وقبيل انتهاء الإجازة بساعات اشتعل الشوق أكثر يود والده ألا يفارقه وكذلك اخوته التفوا حوله مودعين وقد ترقرق الدمع في أعينهم أما أبوه فقد بلغت سعادته عنان السماء وهو يستمع لأسئلة زملائه في الجريدة ويجيب عنها بلغة العليم ببواطن الأمور، أنصتوا إليه كما لو كان قائداً من قادة الجيش وكيف لا وابنه ضابط مهندس بالقوات المسلحة سألوه عن موعد الحرب وهل مصر مهيئة ومستعدة بحق ، من عمق المقهى جاء صوت داعياً لسعد أن يسدد خطاه ويحقق على يديه النصر .

انصرف محمد عائداً إلى بيته معذباً فقد أدمن الكذب سنوات طويلة حتى كبرت الكذبة ، كذبة لا يبدو لها نهاية ، سرى الفكر في خلاياه متنقلاً معه لا يغادره لحظة حتي بلغ بيته فوجد زينب وأولاده ملتفين حول سعد فقد وصل تواً في إجازة 72 ساعة ، أبدى رغبته في أكل ملوخية بالبط ثم استطرد ضاحكاً : لا .. لا أريد بطاً ولا أوزاً ، مرتبي الآن ثمانية عشر جنيه وبإمكاني شراء أي شيء ، لم تُدرك زينب ما يرمي إليه فقد مرت سنوات على حادثة ذكر البط واستقرت في منطقة مهجورة من الذاكرة تعود إليها حين تريد تتذكر كيف عذّب الحرمان أطفالها وتتساءل : ماذا كنت أفعل ؟ آمنت بوجود الله إيماناً عميقاً رغم أنها أمية لا تكتب ولا تقرأ حتى الفاتحة ، ما يؤرقها إطعام أولادها.

التفت محمد إلى ابنه :

- كيف حالك ؟
- الحمد لله ، الطعام والشراب متوفر وبكثرة .
- هل بإمكان مصر أن تحارب ؟
- التدريبات غاية في الصعوبة ، لكننا اعتدنا عليها .
- متى تعلن الحرب ؟
- موعد الحرب لا يعرفه إلا القادة .

وبصوت يملؤه الرجاء :

- هل من الممكن أن تصبح ضابطاً ؟
- طبعاً ، مع الوقت والترقي ممكن أن أصبح ملازم ثم نقيب حتي رتبة العقيد .
- متى ؟ وهل سأعيش لذلك اليوم ؟ نفسي استرد صورتي وسط زملائي ، كذبت عليهم وعلي أن أواصل الكذب ! إنهم يحبونك مثلي ! أمنياتي الطيبة دفعتني للكذب ولا يمكن أن أتراجع .
- أنا الآن رقيب أول وبعد أربع سنوات أصل إلي درجة مساعد ثم مساعد أول ثم ملازم .
- متى ستصبح ضابطاً لأكون صادقاً مع نفسي ولو مرة وليعلم الناس أن أحلامي كانت مؤجلة وإن كل شيء بإرادة الله .

تأهب سعد للعودة إلى المعسكر وتسابقت الأسرة في مصافحته وتوديعه إلى محطة الأتوبيس القريبة من البيت في شارع هارون الرشيد ، ذلك الشارع العريق موطن الذكريات ، عاش فيه

مع أخويه سنوات الطفولة والشباب الأول ، كانت لهم طقوس لم تتغير كثيراً يستيقظ الإخوة على فترات متقاربة ، يعرف الواحد منهم ترتيبه في الخروج لإحضار طعام الإفطار ، لا يهم البرد أو الحر صيفاً أو شتاءاً أو الأرض الموحلة الطعام كان واحداً لم يتغير ، من عربة الفول الخاصة بالأستاذ بدوي ، يدفعها أمامه في كبرياء وأنفة صباح كل يوم لمساعدة والده المسن أما هو فقد كان مدرساً للرياضيات بالفترة المسائية في مدرسة النجوم المشتركة يرتدي سترة فوق بدلته ، انبهر الجيران بشخصيته وهم ينظرون إليه في دهشة وعلى الجانب الآخر من الطريق مطعم القدس لصاحبه أبي رياض كانت له قصة وحكاية يرويها لزبائنه يوماً بعد يوم بلا كلل أو ملل وهو يقف أمام طاسة الطعمية متابعاً حديثه والناس من حوله يستمعون في دهشة ، كيف قتل اليهود والده أمام عينيه وأخرجوه من داره في بيت لحم حكى لهم عن مذبحة دير ياسين وكفر قاسم وكثير من المذابح نجا منها بأعجوبة ، ثم يتوقف برهة متأملاً وجوه الزبائن .
- متى ستحارب مصر ؟ هل هناك حرب قادمة ؟
يتذكر أولاد زينب السؤال ، هو ذاته السؤال الذي سمعوه من أبيهم وهو يسأل أخاهم سعد ، ادخروه في أنفسهم ليسألوا أخيهم في الإجازة القادمة .
كان الجبن الأبيض من عوامل التهدئة وتلطيف الجو إذا أُضيف إلى الطعام ، كذلك كانت جريدة الأهرام التي أدمنها محمد شعيب مع لعب الورق وسباق الخيل ، لقد عاش جواً من الحيرة بين حقيقة يراها في ابنه ووهم يعيش فيه بين زملائه الأمر الذي دفعه إلى حساب الترقيات باليوم والسنة ومعرفة الرتب وتمييزها ربما فاجأه أحدهم بسؤال مباغت ، كذلك امتنع عن دعوة زملائه إلى بيته ولو في مناسبة وجعل من المقهى مكاناً مفضلاً للقاء الأصدقاء ربما كان ابنه في إجازة ، كما أنه شديد الغيرة على زوجته بشكل مرضي ، بالملاية اللف كانت تلتف وعلى رأسها منديل محلي بالخرز والترتر تحبكه علي رأسها ، تعلوه طرحة بلون الليل في وقت كادت الملايات اللف أن تندثر ، وزينب مسيّرة على طول الخط ، لا تعصى لزوجها أمراً تأتمر بأمره وتحب ما يحبه ، عاشقة له بعد أن انقطعت حبال الوصل بين أهلها بالموت ، حتى شقيقتها خديجة انقطعت أخبارها منذ سنوات ، أولادها وزوجها هو السند الباقي في الدنيا فهو الوسيم الذي تقع في حبائله النساء.
شقة مصر الجديدة ثلاث حجرات وصالة ممتدة ومطبخ وحمام تصعد إليه بثلاث درجات ، تطل نوافذها علي أرض فضاء كانت حديقة في يوم من الأيام ومع أن الأسرة مكونة من خمسة أفراد إلا أن مساحة الشقة كانت كبيرة نسبياً الأمر الذي توقف أمامه محمد طويلاً فكر أن يؤجر إحدى الحجرات بمبلغ يرفع به مستوى معيشة أسرته ، عرض الفكرة على زوجته التي رحبت لم يمض على هذا الترحاب إلا أيام قليلة حتى توقف بباب البيت حمار يجر عربة عليها أطياف من المنقولات الهزيلة غير المتناسقة ، وعلي العربة جلس رجل خمسيني تشي ملامحه بحرارة جو الصعيد مُقطّب الجبين يحمل هموم الدنيا ، تأمل الحمار في صمت بنظرات ملأتها الغيرة وبجواره جلست أعين كحيلة اختلط سوادها ببياضها تطالع وجوه المارة والبيت الجديد ، هبط عبد اللطيف من العربة ومد يده يساعد زوجته فتحية حتى لامست الأرض قدماها تقدمها إلى الداخل حيث محمد شعيب وزوجته تقف بجواره على استحياء ، ودودة بطبعها رحبت بفتحية أخيراً وجدت من يؤنس وحدتها أثناء عمل محمد في الجريدة ، ومن طرف خفي مرت فتحية بعينيها على جسد محمد بنظرة فاحصة ، اخترقته وتبادلا النظرات في صمت وترقب ، دعتها زينب إلى الطعام في حضور محمد وغياب زوجها ، لم يرحب محمد بتلك المشاركة ، بل كان يسعى لمشاركة من نوع آخر وكذلك تمنت فتحية ليحتل محمد مساحة هائلة من وجدانها وخيالها ، عشقته عشقاً أطاح بزوجها ورغباته كما أطاح بأحلام زينب في الاستقرار ، لم يكن لها الخيار فهي مسيّرة أمام رغبات زوجها فكانت تخرج بصحبة أولادها نزولاً علي رغبته لتتيح له الفرصة والمكان لينفرد بفتحية بعيداً عن الأعين ولو لفترة تعود بعدها لبيتها مرة أخرى ، لم يعد الأمر خافياً بعد أن فاحت رائحة كريهة وصلت إلى أنف وأذن عبد اللطيف فارتاب في زوجته وساورته الشكوك لكنه لم يتوقف كثيراً وراح يردد : إن بعض الظن إثم ، لقد تجاوز الأمر حد

الظن وأصبح في دائرة اليقين وتشتت ذهنه فلم يعد قادراً على التصرف في مواجهة زبائن المطعم الذي يعمل به .
في ذلك اليوم لم يستطع الاستمرار في العمل بعد شعوره بتقلص في الأمعاء مفاجئ آثر بعده العودة إلى البيت ورأسه تملؤه الظنون فأبو سعد أصبح دائم الإجازات وكثيراً ما كان يخرج إلى عمله ويتركه مع فتحية منفردين ، ولدى الباب عمد إلى النظر خلسة من ثقب ينسرب منه الضوء بصعوبة فهاله ما رأى وتسمرت قدماه وكأنه يشاهد واحداً من أفلام الرعب أبو سعد يحاول عبثاً ارتداء سرواله الفضفاض في عجالة وقد خرج تواً من حجرة فتحية متوجهاً إلى باب الشقة وعلي زاوية فمه ارتسمت ابتسامة شاحبة وقد تغير لون وجهه : أهلاً عبده .....
عجز محمد عن مواجهة عبد اللطيف بينما ترقد فتحية في حجرتها وقد تصنعت النوم ، اتجه إلى المطبخ يعد حجرين شيشة يداري بهما خجله وضعفه وليبدو متماسكاً أمام غريمه الذي بادره بسؤال مباغت :
- ماذا كنت تفعل في حجرة فتحية ؟
- ما لي بحجرتها ! استعذ بالله من الشيطان !
كرر عبد اللطيف السؤال في عصبية .
- يا أخي سألتها عن موعد نشرة الأخبار !
أشار عبد اللطيف بإصبعه إلى عينيه مرددا :
- بعيني هذه رأيتكما !
جلس محمد القرفصاء مستنداً بظهره إلى الجدران وبيده أمسك الشيشة :
- روق دمك وصل علي النبي وخذ لك نفسين .
اندفع عبد اللطيف إلى حجرة نومه وأنقض على فتحية يتحسس جسدها فلم يجد أي ساتر، سألها بلهفة وأجابت في جرأة :
- وماذا في ذلك ؟ الجو حار وكذلك تفعل كل النساء !

10

بدت تصرفات محمد طبيعية وقد حرص على أن تكون كذلك خالية من الإضطراب ، عيناه القلقتان تخشان مواجهة عبد اللطيف وتتجنب النظر إلى عينيه ، أما فتحية فكانت على النقيض من عشيقها ، ثابتة الجأش في مواجهة زوجها ومن وراءه دأبت على مداعبة محمد بعينيها حتى في وجود زينب ، تلك المرأة التي تحمّلت كثيراً في سبيل الحفاظ على بيتها ، ارتاب عبد اللطيف في نظره وفي شراعة الباب وفي الباب وفي الحي بأكمله ، فهو يحب زوجته ولم يقصّر في حقها يوماً حتى في علاقته الخاصة بها ، لم يكن فناناً ابداً أو صاحب موهبة لكنه يؤدي بشكل جيد ، يشعر معها بسعادة تُنسيه هموم العمل وتعب النهار ومعاملة الزبائن وفتحية من أشد المؤمنين كانت بقدرات زوجها حتى انتقلت إلى تلك الحجرة بشارع هارون في شقة محمد شعيب ، ليتها ما جاءت ، ما إن رأت محمداً حتى تعلقت به ومالت إليه بكل جوارحها ، وقع عبد اللطيف في حيرة وتناوبت عليه الأفكار وتردد بين الثأر منها وبين الغفران ، هو لم ير شيئاً محدداً بعينيه ، رأى محمد يخرج من حجرتها ولم ير أو يجزم أن الشيطان ثالثهما حكاية الشيطان هذه لم تكن مقنعة بالنسبة له ، ود لو رآها رأي العين لكنه تحسس جسدها دون عائق أو ساتر ، ولما أبدى استنكاره تذرعت بحرارة الجو وإن كل النساء يفعلن ذلك ، هو على يقين لكن ينقصه الدليل القاطع على خيانتها ، لم يعد يطيق النظر في وجه محمد الذي أصر على تطبيع العلاقات معه ومع زوجته حتى يبدو الأمر طبيعياً ، وبين قبول ورفض عاش عبد اللطيف فترة من أحلك فترات حياته ، أغدقت عليه زوجته من نفسها وحبها ونثرت القبلات على جسده حباً وهياماً زائفاً حتى أوشك على النسيان وظن نفسه فارسها الذي كان ، استدرجته إلى ليال كثيرة حمراء وسوداء بالنسبة له ربما أنسته ما قد يكون قد لمحه وتعيد إليه ثقته فيها لكن قدراته لم تسعفه وهى تصر على إيهامه الإحساس بالنشوة وأنه بلغ بها الذروة وتسأله في مكر : ماذا بك يا عبده ! الليلة تبدو غير طبيعياً بالمرة !

لم تكف فتحية عن خداعه وإيهامه في كل مرة بقدراته الفذة وتبثه رغبتها في إنجاب طفل من صلبه يربط بينهما العمر كله فهي تحبه ولن ترضى بغيره زوجاً رغم كثرة المريدين ، فتحية خمرية اللون مثل زينب تفوقها جمالاً وخفة ظل بشكل لافت وعلى زوجها أن يحمد ربه على ما أعطاه من نعمة ، تهيأ عبد اللطيف لفكرة إنجاب طفل ونسي ماضيه مع الأطباء ولم يسأل نفسه لماذا الآن ! لقد تزوج فتحية منذ عشر سنوات أو يزيد دون إنجاب ولم تتكلم أو تعترض فهى تعلم رأى الأطباء من قبل ، وما بين ليلة هنا وليلة في الحجرة المجاورة اعترى جسد فتحية بعض التغيرات لاحظها زوجها ولم يتوقف عندها كثيراً بل كان سعيداً لمنظر زوجته ونصحها بعدم الإفراط في الطعام حتى تبدو رشيقة ، رقدت بجواره وقد تعرى نصف جسدها في إثارة وعبده يكاد يطير من فرط النشوة ، أخبرته أنها أسعد امرأة في الوجود بعد أن أنعم الله عليها بجنين استقر في بطنها ، مالت إليه في همس :

- إذا رزقنا الله بطفل سأسميه ناصر ، زعيم القومية العربية .

شعرعبد اللطيف بهزيمة زلزلت كيانه وكيان كل من حوله وفتحية تواصل كلامها :

- ما رأيك في الاسم ؟

- أنت حامل يا فتحية ؟ من أبوه ! أجمع الأطباء أنني لن أُنجب ! من أبوه ؟

أخذ عبد اللطيف يدق رأسه بكفيه مرات متتالية ناظراً إليها في حنق ورغبة في قتلها وهي تتأمله في ثقة وتواصل خلع ما تبقى من ملابس .
- حامل منك ، أنسيت ما نبيت فيه كل ليلة ! إرادة ربنا أعطاك نعمة لا تقدرها ، قادر علي كل شيء .
مرت شهور الحمل وعبد اللطيف بين شك ويقين فقدرة الله لا حدود لها ، ربما رزقه الله بطفل ليكون سنداً له في حياته وقد شارف على الستين أما فتحية فكانت بحق أسعد امرأة ، عرفت كيف تخدع زينب وتوهمها أنها حامل من زوجها بحق ، حتى صدقتها فقد جربت قبلها آلام الحمل فكانت تقوم على خدمتها في أشهرها الأخيرة ، بالأمس اشتد عليها الألم وبخبرة زينب أيقنت أن موعد الميلاد قد أزف وعليها الانتقال إلى المستشفي حيث تلقى الرعاية الكافية وهناك في عنبر الولادة أحاطها محمد بنظرة شفقة وقبّل المولود أما عبد اللطيف فلم يطق الذهاب إلى المستشفي بل تمنى موتها هي وما تحمله في بطنها وقد أضمر في نفسه شيئاً وتساءل : ماذا لو استمر الحال في هذا البيت وهذه الحجرة ربما ملأتها فتحية أطفالاً ليسوا من صلبه ، تأمل حاله مع الطفل الوافد من رحم الغيب ! وراح يتمتم : الفاجرة اسمته عبد الناصر !
بعد أيام تأهبت فتحية للخروج بمفردها بعد وفاة جنينها ليرتاح قلب زوجها بعد أن وضع القدر حداً لأحزانه وموقفه من فتحية ومن البقاء في هذا البيت ، وما إن اقتربت فتحية من البيت حتى لمحت زوجها يقف بجوار عربة يجرها حمار لم يخدعه أحد ، نظر عبد اللطيف إلى الحمار نظرة متأملة ، لم تكن نظرة غيرة كالمرة السابقة ، انطلق الحمار وعبد اللطيف وزوجته حملتهم العربة إلى مكان آخر بعد أن تخلص من ماضيه ومن عاره ومن الحجرة ومن بيت غريمه ومن شكوكه وهواجسه لكنه لم يستطع التخلص من فتحية ، ربما أنساه الوقت ما كان ، عاش محمد شعيب مع زوجته أيام عصيبة بعد رحيل فتحية فبدا متوتراً عصبياً قليل الطعام يثور لأتفه الأسباب ، لم تنقطع العلاقة بينهما سنوات فقد كان حريصاً على مقابلتها يوم الأحد من كل أسبوع وزينب وأولادها لا يشعرون بشيء لكنها امرأة ككل النساء ، شعرت بتغير حاد في معاملة زوجها وأدركت بحاستها الفطرية أنه مازال علي علاقة بفتحية لا تريد منه شيء ، لقد سامحته كما فعل عبد اللطيف مع زوجته لكنه مصر على جرحها يوماً بعد يوم فلم تملك زينب إلا الدعاء عليه فكانت تخلع ملابسها كاملة وتبعثر شعر رأسها وتظل تدعو عليه باكية وهى على يقين أنها بدعائها هذا وبالهيئة التي هي عليها سيستجيب الله لها ويريها فيه يوماً رغم أنها تحبه !
خلال تلك السنوات كانت حليمة أقرب إلى زينب من أي وقت مضى ، واستها وطيبّت خاطرها ، ذكّرتها بأولادها وبادلتها الشكوى ، شكت زينب من زوجها وشكت حليمة من فاضل وكيف أن المشاكل احتدمت بينه وبين عطية والمعارك المفتعلة التي أشعلتها سعدية مع فاطمة المرجاوية غيرة وحقداً على عطية وزوجته التي ما زالت مصرة على إنجاب أكبر عدد من الأطفال فلديها من الأولاد تسعاً ، عزوة وجدار سيأتي يوماً تحتمي بهم من غدر الزمان ، ازدادت الفرقة بين الأشقاء وانقطعت الزيارات أما حليمة فكانت أماً للجميع تروق لها الإقامة في بيت زينب بعيداً عن بيت فاضل وعطية والعراك على أتفه الأسباب .
في ذلك الوقت من نهايات عام 68 وبدايات عام 69 وخلال حرب الاستنزاف ومصر تعيد تسليح الجيش وتوحد الصف العربي ، عُقد مؤتمر للقمة لفض النزاعات بين الدول العربية وبعضها وقد خرج المؤتمر دون تحقيق نتائج ملموسة ولم يتفق العرب على كلمة سواء وفي سبتمبر 1970 وقعت الواقعة التي هزت وجدان الأمة بأسرها يوم خرج الشعب المصري عن بكره أبيه ليودع زعيم الأمة العربية جمال عبد الناصر ، خرج ليودع الحلم العربي إلى مثواه الأخير وفي أكتوبر من نفس العام أسلمت الست حليمة الروح بعد مرض قصير لم يمهلها ، حاول الجميع استدعاء طبيب لكن قلة المال حالت دون ذلك آثرت حليمة الموت رغم أنفها حتى لا ترى لحظة العجز بادية على وجوه أبنائها ، ماتت كما مات عبد الناصر دون أن يحقق الوحدة بين الأشقاء .

11

خبر وفاة حليمة أحدث صدمة كبيرة في حياة زينب فكانت لها بمثابة الأم والأب وبوفاتها شعرت بمرارة اليتم مرتين ، في طفولتها حين توفي أبيها وفي التاسعة من عمرها حين توفيت والدتها وجاءت الست منيرة ومعها زوجها ، اصطحبتها للعمل في بيتها ، لحظة قاسية أعادتها أربعين عاماً من عمرها ، اعتراها ألم شديد لم يستطع الطبيب تشخيصه استمر معها خمسة عشر يوماً حتى بدأت تسترد صحتها يوماً بعد يوم فالزمن كفيل بمداواة الجروح إلا جرح زوجها ، أدمى قلبها مرات ومرات ، امتدت حالة الحزن من بيت زينب إلى بيت عطية إلى بيت الحاج حامد ومنه انتقل الخبر بسرعة شديدة إلى قرية المحامدة القبلية مسقط رأسها وبيت ابنتها آمنة وزوجها الشيخ أحمد اليمني الذي سارع فور تلقيه الخبر بالسفر إلى القاهرة لمواساة أشقاء زوجته وهناك طاب لهما المقام في بيت زينب بضعة أيام متتابعة ولما شعرا بضيق الحال انتقل وزوجته للإقامة في بيت فاضل بالزيتون ، ورغم سعة العيش شعرت آمنة بالاغتراب ولم تشعر أنها في بيت أخيها وكذلك زوجها ، لمح مشاعر عدائية بدت في ملامح وجه فاضل تجاه شقيقه عطية ، غاب عن البيت الجو الأُسري والمشاعر الطيبة ولم يكن أحمد اليمني وزوجته على استعداد لتقبل تلك المشاعر :

- تشعرين بما أشعر به ؟
- ماذا تقصد ؟
- مقابلتهم لنا !
- من الصباح نحزم أمتعتنا ، بل من الآن ، المحامدة القبلية أولى بنا .

حرص محمد شعيب على أن يكون عزاء والدته لائقاً به وبحضرة الضابط ربما حضر أحد من زملائه في الجريدة للعزاء فقد كانوا في شوق لرؤية الضابط سعد أما محمد فقد كان حريصاً على إخفاء ابنه عن أعينهم مع التنبيه الشديد ألا يظهر مطلقاً حتي يمر اليوم بسلام ودون فضائح ، تفهم سعد مشاعر والده وبطبيعة الحال حضر فاضل وشقيقه عطية ليلة العزاء وعلى غير المتوقع نادى فاضل على ابن أخيه بصوت جهوري :

- أما صحيح قليل الأصل ، لماذا تقف بعيداً ؟ كبرت ولم تعد في حاجة لي !

هم فاضل في التمادي في المعايرة ، تلك كانت طبيعته حب الذات وتحقير الآخرين ، وبينما هم كذلك والناس حضور ارتبك سعد مع نظرات زملاء والده إذ تقدم أحدهم ماداً يده مصافحاً :

- البقاء لله يا فندم ، فرصة سعيدة ، أقصد ....

تلعثم الرجل واتجه إلى محمد شعيب :

- أما كان من الأولى أن تعرفنا بحضرة الضابط سعد !
- تعالى يا سعد سلم على عمك صالح والأستاذ شوقي أعز أصدقائي .

واستطرد محمد شعيب حديثه :

- سعد ابن أخي ، كبر وأصبح رجلاً .

صاح الزملاء :

- أين الضابط سعد إذن !

- الضابط سعد لا يملك نفسه ومكانه في المعسكر وليس هنا وكما تعلمون فالبلاد تمر بحالة طواريء ، على أي حال هو بخير ويتصل بنا بين الحين والآخر ، تصوروا ..حتى الآن لا يعلم بوفاة جدته ! الله يرحمها .
بذكاء شديد خرج محمد من مأزق كبير كاد أن يكشف ما حرص على إخفاءه سنوات طويلة ، انفض سرادق العزاء وانصرف الجميع كل من حيث أتى وعاد محمد وأسرته ليجمعهم الطعام على طبلية واحدة وزينب تستحث زوجها علي طعام بطعم الحزن كان ، فقد هز الحدث زينب وأولادها :
- الله يرحمها ، ماتت ودعت لنا بالخير.
- أرأيت كيف كان فاضل يعاملها !
- كما تدين تدان ، ربك يمهل ولا يهمل .
في تلك الآونة حشدت مصر قواتها على حدودها الشرقية بطول قناة السويس وأقامت حائط الصواريخ في وقت قياسي وقد واكب ذلك تحديث باقي الأسلحة فكان لها أسطول طائرات لا يستهان به وفرق مدرعة قادرة على خوض أعنف المعارك البرية مع التدريبات الشاقة المستمرة وإرادة واعية وتصميم على الثأر وحشد معنوي ، تحطيم خط بارليف وعبور القناة وتحويلها إلى حفرة من حفر النار في وجه العدو أصبح حلماً يراود كل فئات الشعب فاشتاق الناس إلى لحظة العبور إلى الضفة الشرقية لقناة السويس .
في غرفة عمليات القوات المسلحة اجتمع الرئيس السادات مع قادة الجيوش وأعلنوا إشارة البدء ، ساعة الصفر في الثانية ظهر يوم السادس من أكتوبر 73 في تلك اللحظة توقفت أنفاس الشعب المصري ليبدأ بعدها حياة جديدة عنوانها الكرامة والعزة التي كان يسعى إلي تحقيقها جمال عبد الناصر ، انقسم الناس بين مصدق ومكذب : هل وقعت الحرب بحق ؟ وانطلق الشعب يغني : باسمك يا بلادي تتشد العزيمة وباسمك يا بلادي خطينا المحال ، أيام لا تُنسى في حياة المصريين وحياة زينب أيضاً أم حضرة الضابط ، مر شهران على آخر إجازة له وزينب تسأل في قلق : تُرى أين أنت الآن يا سعد ، حياً أم ميتاً ؟ وتسأل زوجها عن موعد نهاية الحرب وهو مثلها حائر بين أسألتها وبين أسئلة زملائه في الجريدة غداً وبعد الغد !
لم يهدأ قلبها إلا بعد أن اتصل سعد بوالده في الجريدة ليرد عليه أحد الزملاء :
- الو .. من .. نعم ؟
- أنا سعد ، من فضلك بلغ عمي محمد شعيب أنني بخير وبصحة جيدة .
كان ذكاءً شديداً من سعد وهو الحريص على ستر والده الذي فرح بالمكالمة ، سأله واحد من زملائه في مكر :
- الحمد لله الضابط سعد بخير ، عليك أن تطمئن .
- يا آخي ليس الضابط سعد ، المتصل ابن أخي واسمه سعد أيضاً وفي الجيش وأراد أن يطمئننا عليه ! ألم يقل لك بلغ عم محمد ؟ متى ستفهم !
تدرج سعد في عمله من درجة لأخرى ، مشهود له بالكفاءة والجرأة ، تلك الصفات حببت فيه رؤساؤه كما كان صادقاً في مشاعره مرهف الحس وإن كانت ملامحه تشي بغير ذلك ، ففي المناسبات السعيدة هو أسعد الجميع وفي المناسبات الحزينة يبكي بكاءاً ليس فيه مجاملة ولا رياء وإنما شعور من القلب ، كثيراً ما كان يبحر في الذكريات ، لم ينس أمه الطيبة وكفاحها مع أبيه وكيف استمرت الحياة على ذاك النحو ، لم ينس باب المطبخ بديلاً عن السرير الذي كان يتخيله ويقرأ عنه في الحكايات ، ذكريات مؤلمة أصبحت جزء من حياته لا يمكن محوه ، صور أخويه محمود وسيد لا تبرح خياله ، تطوع في الجيش لحبه الشديد وتفاعله مع الحالة التي مرت بها مصر بعد هزيمة 67 وحزنه الشديد على أطفال مدرسة بحر البقر ومتابعته لحرب الاستنزاف ونتائجها المبهرة ورغبته الشديدة في الثأر من الأعداء ، طموحه الكبير هذا قابله ضيق حال أُسرته فالأحوال تسير من سيء إلى أسوأ تمنعهم من أن يكون لهم أمل كباقي الناس ، لم تكن أحلامهم مؤجلة أبداً ، لم تكن لهم أحلام على الإطلاق ، كل يوم ينتظرون الصباح

لتناول طعام الإفطار وتبديل ملابسهم وإزالة ما لحق بها من رائحة بقدر الإمكان ، نجاحهم في المدرسة كان يأتي مصادفة فالجميع يجتهد ويحاول وينام على دعوات الأم وأمنيات الأب فالمستقبل على ضوء لمبة الجاز غير واضح المعالم ، لم يكن في بيت زينب مصابيح كهربائية كباقي سكان مصر الجديدة نسي محمد خلال صولاته وجولاته توصيل الكهرباء فكانت الشقة الوحيدة في البيت التي يزين جدرانها لمبات الجاز وزينب تملأ الواحدة تلو الأخرى بالجاز وتعيد تعليقها علي الجدار وقد تعلقت أعين أولادها بما تقوم به في صمت ورائحة الجاز تعبق المكان .

12

في الساعة السادسة بدأ سعد توزيع الخدمات وتحديد موقعها لكل فرد من أفراد الحراسة بناء على أوامر رئيسه المباشر الصول عطوة ، مثله الأعلى والأكبر منه سناً ، لعطوة صوت جهوري لا يتناسب مع جسده النحيل ، جريء ، في نظرته حدة وصرامة ، تراه وهو يمشي كأنه في طابور عرض عسكري ، استراح لسعد ووثق فيه وقرّبه منه وكثيراً ما دعاه إلى خيمته لشرب الشاي والمسامرة ، في تلك الليلة صدّق قائد الكتيبة علي منح الرقيب أول سعد شعيب إجازة وقد كلفه عطوة بتوصيل راتبه إلى زوجته في بيته بحي المطرية
لم يتغير شيء في حياة زينب ، في حالة انتظار وشوق دائم لسعد ، تعد الأيام باليوم والساعة وتحسب يوم إجازته بالتحديد وإذا تأخر يوماً عاودها القلق من جديد كذلك محمد شعيب ظل ثابتاً على مبدأه وزاد عليه بإطالة فترة الجلوس في المقهى والبقاء خارج البيت أطول فترة ممكنة يتفحص أسماء الفائزين بجائزة أوراق اليانصيب طامحاً إلى تحقيق الثراء بأقل مجهود وأقصر الطرق فكان مغرماً بحكايات علي بابا ، يهوى فكرة تحويل التراب إلى ذهب ، فيضاعف من شراء الأوراق فهي حلال وسعي لزيادة الرزق ، دائم الشرود مع أحلام اليقظة محلقاً في الخيال فالله يرزق من يشاء بغير حساب ، محمد شعيب في قرار نفسه عميق الإيمان يحمد الله كثيراً وبشكل لافت ومعه زوجته بعد تناول وجبة طعام دسمة أما إذا كان الطعام متواضعاً بدا أثر ذلك على وجهه ونبرات صوته أما الصلاة فالصلاة على النبي كانت كافية بالنسبة له ، سجادة الصلاة أيضا كانت ترف ما بعده ترف لا وجود لها في بيته ، كيف وزينب تغطي أولادها بسجادة صنعتها من قصاقيص شتى ، لم تكن الصلاة تخطر ببال أحدهم حتى صلاة الجمعة غير أنهم كانوا شديدي الحرص على الصيام والزكاة ففيه مصلحة للأولاد وللأسرة .
تودد سعد إلى أُمه واقترب منها يحدثها في أمر زواجه فأكثر زملائه قد تزوجوا ، قد تغير الآن وضعه وأصبح له راتباً يمكّنه من فتح بيتاً وتكوين أُسرة ، أسرت زينب إلى زوجها برغبة سعد في الزواج فأبدي موافقته بشرط ألا يتوقف عن مساعدة أخويه ، لم يخطر ببال سعد أن يتخلى عنهم أبداً بعد زواجه فالزواج صيانة له فهو على صغر سنه صاحب تجارب نسائية تفوق سنوات عمره بكثير ، تأمل محمد شعيب ابنه وهو جالس بجواره :
- أنت رجل ، كن حريصاً ، عليك أن تُحسن الإختيار
- خذوهم فقراء ....
- كفانا فقراً ، اذهب وافعل ما شئت .
- سمعتهم يقولون هذا .....
انطلق سعد إلى حي المطرية القريب وأمام شقة الصول عطوة توقف طويلاً ، طرق الباب بلا مجيب ومن الداخل انبعثت أصوات جلبة ذات ايقاع وما يشبه الموسيقى ، أعاد طرق الباب بقبضة يده ، وللمرة الثانية لم يجبه أحد ، تناهى إلى سمعه أصوات موسيقى تحرض على الرقص تملأ المكان وهو حائر يساءل نفسه : هل أخطأ العنوان ! أهذه شقة الصول عطوة المتجهم الصارم ! أخرج من جيبه ورقة أعاد قراءتها ، مدون فيها ذات العنوان ، هرج ومرج وضحكات نسائية ورائحة سجائر انبعثت بكثافة من الشقة ، أدرك سعد أن هناك رجل بالداخل

وتزاحمت الأفكار في رأسه فقد ترك الصول عطوة في الكتيبة طرق الباب بإصرار فانفتح عن توفيق ، وحش كاسر هكذا بدا من هيئته ، كشر عن أنيابه وقد أحاط بيديه شورت أحمر أدركه قبل أن يسقط فتبدو سوءته، نظر إلى سعد نظرة متحرشة :
- كيف تُطرق الباب هكذا ! من أنت ؟
- أنا .. أنا ..
- من أنت وماذا تريد ؟
وقبل أن ينطق خرجت امرأة شبه عارية ومعها ابنتها تستطلع الأمر ، أدرك سعد من كلامها أنها زوجة الصول عطوة :
- من أنت ؟ ابتعد يا توفيق ..
- تفضل يا حبيبي ...
على أول مقعد جلس سعد في ذهول ، مد يده بالمرتب لزوجة الصول عطوة التي كانت تحتفل بعيد ميلاد ابنتها سوزان بحضور عمها توفيق لتنطلق الموسيقى مرة أُخرى ، وجد سعد نفسه في هذا الجو الراقص أخذته الموسيقى من نفسه فلم يشعر بها وراح يتمايل فاقتربت منه سوزان وأمها الطاف وأحكمتا على خصره الحصار ، لم ترفع سوزان عينيها عنه وهو يرقص متفوقاً على أُمها وعليها حتى انتصف ليل المطرية مع انصراف سعد إلى بيته في مصر الجديدة واسم سوزان يدق رأسه ويلح عليه وينسج من خياله شال من خيوط حريرية يحيط به عنقها ، إعجابها به فاق الحد رغم قصرمدة التعارف وإعجاب أمها بتوفيق تجاوز حد الخطر .
في تلك الليلة لم يعرف سعد للنوم طريق فاستيقظ مبكراً وعلى الطعام فاتح أُمه وأبيه فهو الإبن البكر وأول فرحتهم ، نصحه أبوه أن يدقق في الاختيار كذلك نصحته أمه أن تكون من اختارها زوجة صالحة أحلام زينب وزوجها أحلام بسيطة مشروعة تسبق خطواتهم ، اتسعت الفرحة لتشمل شقيقيه سيد ومحمود لم يتصور أحدهما أن سعداً سيتزوج ويغادرهم إلى بيت آخر خاصة شقيقه الأصغر محمود ، لم يتخيل أن شيئاً في الدنيا يمكن أن يفرق بينه وبين أخويه خاصة شقيقه الأكبر فبقدر فرحته بقدر ما شعر بالأسى ، ذكريات مؤلمة أوجدت حالة من الجاذبية قرّبت بينهم.
تقدم أولاد زينب في مراحل التعليم فقد حصل سيد على الشهادة الإعدادية والتحق بمعهد المعلمين أما محمود فقد التحق بالصف الأول الثانوي ، محمود أحب القراءة بتشجيع من والده فكثيراً ما كان يمده بالمال لشراء القصص والروايات ، يقرآن معاً ويتبادلان الرأي في النهاية أما الإبن الأكبر سعد فقد سارت حياته على وتيرة واحدة ، يقضي معظم أيامه في وحدته العسكرية وأيام الإجازة يقضيها بين أخويه وبين بيت الصول عطوة فقد ارتبط بسوزان ارتباطاً وثيقاً ، أعجبه جو الحرية والمرح الذي لا ينقطع ، ذلك الجو أعجب كثيرون في تلك الفترة فقد كانت موضة ألميني جيب هي السائدة في هذا الزمان وظلت مسيطرة على بنات الجيل ولسنوات طويلة ، لم يكن المد الديني قد انتشر حالة من الحراك سيطرت على الشعب المصري بعد أن تركت فيهم هزيمة 67 أثراً عميقاً انعكس علي سلوكياتهم فزادت الجرائم بكافة أشكالها وحدث ما يشبه التفكك وانعدام الثقة ، ومع غياب القائد والرمز غاب الهدف ، كان بيت عطوة واحداً من بيوت الشعب فقد زادت ليالي الأنس وارتبط سعد بسوزان أكثر كما ارتبط بالصول عطوة وتوفيق القائم على شئون البيت في غياب عطوة .
سوزان على قدر من الجمال كانت وشيء من الجاذبية يفوق السحر لم يتحمله سعد ، قضى أغلب إجازاته في بيتها مع أمها وعمها توفيق حتى تهامس الناس عن مدى علاقته بزوجة أخيه ثم ارتفع الهمس شيئاً فشيئاً حتى طال سعد ودخوله وخروجه المتكرر في أي وقت صباحاً أو مساءاً حتى كان يوم بينما توفيق نائم في حجرة مستقلة مع ألطاف زوجة عطوة وسوزان ترقد بجوار سعد إذ سمع نفر منهم طرقاً خفيفاً على الباب أرهف توفيق السمع وتساءلت ألطاف فازداد الطرق وتلاقت أعينهم : تُرى من الطارق في تلك الساعة المتأخرة من الليل ! كشر توفيق عن أنيابه وفُتح الباب عن الصول عطوة فاغراً فاه متسائلاً إن كانوا قد ناموا فالوقت

مازال مبكراً ! لم يبد عطوة أي انزعاج وتوجه إلى أقرب أريكة ألقى بنفسه عليها ، انتفض سعد ومعه سوزان فبإمكان عطوة أن يخرب بيته ويحيله إلى محاكمة عسكرية ويفقده مستقبله ويحطم حلمه وحلم أبيه في أن يكون ضابطاً ، ذلك الحلم الذي عاش محمد شعيب ينتظره بين الوهم وبين الحقيقة .
زادت مخاوف سعد ووقعت سوزان في حيرة ولم يجد من الخروج بد والسلام على الصول عطوة وأخذه في حضن عميق لينسى ما هو فيه ، كذلك خرجت سوزان كان من الطبيعي أن يملأ الرعب قلب سعد فقد أصبحت سوزان زوجة له أمام الشيطان فقد فض بكارتها واعتاد معاشرتها معاشرة الأزواج وسط حالة من الرعب سيطرت عليها خوفاً من أن يتركها قبل أن يعقد القران عليها ، شبح الخوف من الفضيحة ظل يطاردها فأغدقت عليه من نفسها أكثر وأكثر وبلا حدود وعلى كل الأصعدة حتى أدمنها وأصر على الإرتباط بها رغم كل شيء ، سابق الزمن حتى يعد بيت الزوجية وكذلك سوزان تطلعت إلى اليوم الذي يجمعها بسعد في بيت واحد بلا خوف ، حثت أمها على الإسراع بتجهيزها بأقل القليل بعد أن صارحتها بما كان منها ومنه راجية أن تبحث لها عن حل لمداراة الفضيحة :
- أقسمت عليك أن تتصرفي وتبحثين عن حل
- علينا أن نشرك خطيبك ، ألم يعلم بفعلته السوداء !
- نعم يعرف .
- نشركه معنا ، لا تنسي أن باقي أعمامك سيحضرون الزفاف وطباعهم ليست كطباعنا.0
- لم يبق من الوقت الكثير ، سيتم الزفاف الأسبوع القادم 0

13

في بيت الصول عطوة أُعلنت حالة الفرح وانطلقت الزغاريد مدوية عبر النوافذ والشرفات وتساءل الجيران عن الخبر وانهالت التهاني على البيت والناس بين مصدق ومكّذب فلم تكن سمعة الأسرة تؤهلها لزواج إحدى بناتها ، تم إعداد لوازم الفرح من أول الطرحة إلى الفستان إلى الحذاء ، لم تنس سوزان الحجز عند الكوافير ودعوة الأهل والأصدقاء والأعمام والأخوال ، ارتدت فستان الزفاف ووقفت أمام المرآة لم يكن الزفاف جديداً عليها فقد عرفته مع سعد منذ ما يقرب من عام وحتى أول أمس ، نزل إجازة ليطمئن على مراسم الزواج ، مرّ على أُمه وأخويه حاملاً بعض الحلوى ولفافة كبيرة تفوح منها رائحة الأسماك ، نوع جديد لم تتذوقه الأسرة من قبل جلبه من السويس ، في المساء عاد محمد شعيب من رحلته اليومية ، لم يمل الجلوس على المقهى ولا لعب الورق فقد آمن ايماناً راسخاً بوجود الحظ ودوره في حياة الناس ، استرعى انتباهه وجود حذاء ضخم على عتبة الباب فتبادر إلى ذهنه نزول سعد في اجازة سأل زينب وكأنه محقق :

- من جاء بهذا الحذاء إلى هنا ؟

- ابنك يا أبا سعد ، أحذية الجيش ضخمة ولا أعرف لماذا ! سيصبح عريساً الخميس القادم .

صمت محمد برهة فلم يكن يهتم بتلك التفصيلات ، المهم عنده أن ينجح أولاده في التعليم ، يعرف كل أخبارهم إجمالاً أما تفاصيل زواج ابنه فلم تشغله كثيراً ، ظلت زينب مستودع الأسرار ، روت لها سوزان ما وقع بينها وبين سعد وكيف أنه يعاشرها معاشرة الأزواج منذ عام وأكثر ، دقت زينب براحتها على صدرها منفعلة وشهقت رغماً عنها ولمعت عيناها :

- نهارك أسود يا سعد ! وأنت .. حكيت لأمك ؟

- رويت لها كل شيء ، الموضوع عندهم غير مهم الأهم منه خوفها من أخوالي وأعمامي ،هؤلاء يصرون على رؤية عرض إبنتهم .

- لم يبق على الفرح إلا يومان ! الموضوع ليس سهلاً بل في غاية الخطورة .

تذكرت زينب ما كان من جميل بك وزوجته قبل ثلاثة وعشرين عاماً مضت في المنزل رقم 13 شارع السلطان السليم وسؤاله المتكرر وتحذيره الدائم لها : إياك أن يكون ضحك عليك أحد ، البنت ليس لها إلا شرفها ، كانت تلك الكلمات من أجمل ما سمعته في حياتها وها هي اليوم تزوج ابنها البكر ولكن يبدو أن الحال قد تغير .

في صباح اليوم التالي أرسلت زينب في طلب ابنها ومعه الست ألطاف على عجل فقد قضى سعد ليلته الماضية في بيتها ، وفي بيت زينب جلسوا يتباحثون كيف يتسترون على الفضيحة ، انبرت أم سوزان وكأنها اكتشفت شيئاً غامضاً وأشارت لإبنتها بمغادرة المكان ومعها سعد واقتربت من زينب هامسة :

- ما رأيك لو ذبحنا خروفاً ومنه نأخذ قدراً من الدماء لزوم الشرف وتمر الليلة على خير .

- عن أي خروف تتحدثين ! عن زوجك عطوة ؟ فعلاً يستحق الذبح !

- ابنك أخطأ هو الآخر .

- ابني رجل لا يعيبه شيء ، تتحدثين عن الخروف الآن ! فلماذا لم يأت معك ليستر ابنته ؟

- دع الرجل وشأنه ولنبحث عن حل .
ومن عمق الذاكرة استدعت زينب ذكرى ذكر البط فاقترحت على أم سوزان شراء بطة صغيرة وكل الحكاية قطرات من الدماء تثبت أن ابنتهم عذراء أغلقت زينب صندوق ذكرياتها على صوت زوجها فقد عاد مبكراً بينما سعد وسوزان يجلسان على الأريكة المواجهة لباب الشقة :
- ألف مبروك يا بني ، عقبال ما تحقق أمنيتي ، أنت تعرفها جيداً ، اهتم بعملك وإن شاء الله ستصبح ضابطاً
- إن شاء الله ، لا تحمل هماً .
- اذهب إلى أعمامك وادعوهم لفرحك ، أين ستقيم الفرح ؟
- في بيت الصول عطوة .
- هذا الرجل غير مريح .
أعلنت حالة الطوارئ في بيت عطوة الذي امتلأ بأبناء عمومته وشقيقات زوجته جاءوا من كفر أبي شوشة لحضور عقد القران ، لم يكن لعائلات كفر أبو شوشة أن يتخلفوا عن حضور الزفاف لما للصول عطوة من سطوة عليهم كما أنه مصدر فخر لهم .
وبحماس منقطع النظير أعدت خشبة المسرح من ألواح خشبية عريضة كالمستخدمة في أعمال البناء ، نُصبت وفوقها نوع رديء من السجاد القديم البالي قريب الشبه بالسجاجيد التي كان يتغطي بها سعد وأخواه ، نظر إليها سعد في أسى ، طارده ماضيه وشبح الفقر في كل شيء رآه ، جاء الكهربائي بأكثر من مائتي لمبة علقها على واجهة البيت والبيوت والأسطح المجاورة وجاءت راقصة لا يعرف أحد من أين جاءت ، اعتلت المسرح الذي امتلأ عن آخره لمشاهدة ما تيسر من اللحم الأبيض ودارت زجاجات البيرة والمياه الغازية علي المدعوين ، أما أحجار الشيشة فقد نافست المدعوين عدداً وغطت المكان سحابة من الدخان الأزرق ودارت رحى الرقص وسهر الجميع حتى مطلع الفجر وتعالت أصوات النسوة في فرح وارتفعت أصوات الرجال فيما يشبه العراك ، الصوت الأجش لم يكن عنوان الرجولة في أغلب الأحيان وزغرودة من هنا وأخرى آتية من شرفة بيت من بيوت الجيران عانقت الأولى الثانية في براءة أما الراقصة فقد تمادت وأخلصت النية إثر سماع طلقات نارية فانحسر عنها ثوبها لينم عن تفاصيل رقصت لها قلوب المدعوين مأذون الحي كان في عجلة من أمره فلم يكن متفائلاً بهذه الزيجة لما سمعه عن عائلة عطوة ، انتهت مراسم الزواج ودُقت الطبول لتزف سوزان إلى بيتها في الثانية عشر ونصف بعد منتصف ليلة الجمعة .
عادت زينب وأولادها إلى بيتها في مصر الجديدة بعد أن اطمأنت علي ابنها فقد أصبح له زوجة وبيت قريب من بيت الصول عطوة ، حرصت الأُسرتان على التزاور بحضور سعد وعطوة ، والحقيقة كان سعد ودوداً حريصاً على أن تظل صلة الرحم موصولة فلم ينقطع عن زيارة أعمامه ، أما والده فقد اهتم بعمله وتفوق فيه وتحسن دخل الأسرة كثيراً وزادت فترة تواجده في البيت وأولى أبناؤه عناية أكثر من ذي قبل فابنه محمود في المرحلة الثانوية وسيد على وشك التخرج مدرساً ، استمرت علاقة أسرة محمد شعيب بأسرة الصول عطوة بين مجاملات وزيارات لا معنى لها في الغالب فقد كان لعطوة طباع لا تتوافق مع طباع أبي سعد فكان كثير الصياح ، إذا حل بمكان أحدث جلبة وسبّب إزعاجاً وضوضاءاً لمن حوله ، ذات مساء والجو شتاء والسماء ملبدة بالغيوم وعقارب الساعة تشير إلى التاسعة مساءاً وبينما هو في زيارة لبيت محمد شعيب وقد انتهى الإبن الأصغر محمود من يومه الدراسي بالقسم الليلي وآثر العودة إلي بيته سيراً على الأقدام ، الأرض كانت موحلة من أثر المطر المتساقط بغزارة فابتلت ملابسه ، استحث الخطى نحو بيته وكلما اقترب من البيت اجتاحه شعور بالانقباض لم يعرف كنهه وكلما تقدم أكثر تسارعت دقات قلبه شعور لا يعرف من أين جاءه وما إن اقترب ولاح له بيته من على البعد حتى وجد سيارات شرطة تحيط بالمكان وسيارة إطفاء وخلق كثير من أبناء الحي والأحياء المجاورة ، اقترب شاحباً يستطلع الأمر، كاد أن يغشي عليه وإنهمرت دموعه رغماً عنه ، سحابة كثيفة من الغبار غطت البيت بأسره ، لم يتبين شيء تناوبت عليه الظنون

وألحت عليه دموعه أكثر فقد أدرك اليوم أنه قد أصبح وحيداً ، خارت قواه وسقط مغشياً عليه ، حمله الجيران إلى بيتهم حتى أفاق اطمئن على أُمه وشقيقه وحمد الله أن والده مازال خارج البيت وشقيقه الأكبر في وحدته العسكرية ، لكنه فوجئ بصوت أجش ، صوت الصول عطوة لا تخطئه اذن ، كان في زيارة لأسرة نسيبه ، انتهى من طعامه وقبل أن يرفع كوب الشاي إلى فمه سقطت كتلة خراسانية من سقف أحد الغرف ، هب منتفضاً مندفعاً إلى قسم الشرطة ظناً منه أن البيت سيقع .

كانت زيارة عطوة نذير شؤم على الأسرة وبداية لحياة جديدة في منطقة أخرى بعد أن أوصى مهندس الحي بضرورة تنكيس البيت وإخلاءه من الأفراد .

باتت زينب ليلتها مع أولادها في شقة جارتها النوبية ولكن الحال لم يستمر طويلاً ومحمد لا قبل له بتكاليف تنكيس البيت ، اجتمعت الأسرة وكان لابد من الرحيل من مصر الجديدة والانتقال إلى شقة أخرى ، لم يكذّب عطوة الخبر وراح يبحث وينقب في البيوت المجاورة لبيته بحي المطرية حتى عثر على شقة متواضعة بإيجار زهيد قبلها محمد وأبناؤه مرغمين .

14

في الجريدة التف الزملاء حول محمد شعيب يسألونه عن أخبارالنقيب سعد ولماذا لم يتزوج حتى الآن ففي الزواج وقاية وصيانة وسعد مازال شاباً تتمناه ألف فتاة ابتسم في ثقة موضحاً لهم أنه أوصى ابنه بحسن الإختيار فمن يقع عليها الإختيار ستحمل اسمه ويجب أن تكون إضافة للعائلة ، أوصاه أيضاً بحسن رعايتها ثم أضاف : لا أخفيكم سراً لقد تزوج سعد الخميس الماضي من ابنة قائد الكتيبة في حفل عائلي بسيط بناء على رغبة والدها ، بارك الزملاء له ودعوا لإبنه بالخير، سارع محمد شعيب بإخراج صورة زفاف سعد من جيب سترته لنشرها على صفحات الجريدة في قسم المجتمع ، كما سارع بدس مظروف في جيبه ضم مبلغاً من المال جمعه زملاؤه وقدموه مع آية قرآنية مساهمة منهم في زواج الضابط سعد ، لم يكن محمد شعيب بعيداً عن مجاملة زملائه في المناسبات السعيدة بل كان كريماً ولو على حساب أُسرته ، محبوباً في الجريدة ومن رفاقه في المقهى .

في غياب سعد في وحدته العسكرية لم تنقطع زوجته عن التردد علي بيت أبيها يوماً واحداً منذ مغادرته هناك الطعام والشراب متوفراً والموسيقى والرقص علي دقات القلوب والحناجر متاحة في حضور عمها توفيق كثير الإنفراد بأمها داخل حجرة النوم ذات الباب الموارب دائماً ، ذلك الباب كان باعثاً على الريبة في نفس سعد من أول يوم وقعت عليه عيناه ، لم تكن سيرتهم محل احترام من أهل الحي ، أكثرهم من الريف وفدوا إلى القاهرة من المحافظات القريبة وبنوا البيوت بالطوب الأحمر دون طلاء خارجي ، اختلط الحابل بالنابل في هذا البيت ما بين طعام وشراب وغناء ، لا يحملون للدنيا هماً فسعد بعيداً لا يدري من أمر نفسه شيئاً وأبوه يتنقل ما بين الجريدة وبين البيت أو المقهي من ضيوف زوجة الصول عطوة جاءت من تدعى أُم حمادة ، تابعتها أعين توفيق من حجرة إلى حجرة تابعها بعينيه وأنامله وهي سعيدة بذلك ، جارة لهم تخلى عنها زوجها وترك لها ولداً وبنتين ، أغلقت عليهم باب الشقة وجاءت تأخذ نصيبها من الدنيا وبرفقتها من رافقها سنوات ، عبده الجزار ذائع الصيت ، ورد اسمه على كل لسان ، رافقها مراراً والناس شهود في كل مكان حتى جاء إلى بيت عطوة ، تقرّب من توفيق فسمح له بالاقتراب كرامة لأم حمادة ولرائحة الشواء ونغمات حركت أعضاؤه واشرأبت جوارحه تجاه المرأة واستطاعت أُم حمادة هذه إمالة رأس سوزان في غياب زوجها وتمادت في دعوتها إلى بيتها وتبادلا الدعوات ، تناثر الهمس والكلمات الجارحة هنا وهناك عن ذلك البيت وما يحدث فيه من سهرات بعيداً عن أُسرة محمد شعيب وابنه وتواتر الحديث حتى بلغ أسماع سعد في إحدى إجازاته ، تلميحات ظهرت على لسان الترزي والحلاق وكلمات أخرى حذرته من سلوك زوجته وأوصته بمراقبتها وكيف أنها ترافق امرأة سيئة السمعة ، شعر سعد بالحيرة وبث حيرته إلى أُمه ولم يجرؤ علي مفاتحة أبيه في هذا الأمر وكيفية معالجته وكان عليه الانصراف والمغادرة إلى وحدته العسكرية بالسويس ، عليه أن يترك بيته للذئاب بحكم عمله مع الصول عطوة وهناك لم يجد بداً من مفاتحته بما كان :

- شيء ما يقلقني على سوزان .

- سوزان بخير ، أحبتك من أول نظرة !

- لا أقصد ذلك ، ما يحدث في بيتك يقلقني ، الاختلاط الزائد مع الغرباء ...و ..
- لا يوجد في بيتي غرباء ! أنا هنا وأعلم ما يحدث في بيتي لحظة بلحظة ، لا تنسى أن توفيق يعيش معهم ..
- تلك هي المصيبة ، توفيق يشاركهم الحفلات والرقص ولا يمكنه أن يحكم بيتاً صاحبه غائب .
- انتظر واهدأ حتى موعد الإجازة ، سيكون لي معهم شأن آخر .

صمت على مضض والقلق ينهشه في انتظار موعد الإجازة ليمضي أيامه ، لم يستطع التركيز في عمله حتي اقترب موعد الإجازة ليغادر المعسكر إلى القاهرة على أن يلحق به الصول عطوة ، وعلى غير عادته توجه إلى بيته اولاً فقد اعتاد من قبل التوجه إلى بيت أُسرته للاطمئنان عليهم ، اختلف الأمر هذه المرة هبط من السيارة قبل بيته بمسافة وراح يتطلع إلى وجوه المارة ربما قرأ فيها شيئاً عن زوجته وطوال الطريق تأمل البيوت والأشجار والنوافذ وأثر الخطى المتجهه إلى بيته ولدى الباب وقف يتسمّع من بالداخل لم يسمع صوتاً ، طرق الباب ودق الجرس دون مجيب أخرج من جيب سترته مفتاح الشقة وأداره في موضعه من الباب فاستجاب المفتاح ولم يفتح الباب ، الباب مغلقاً من الداخل ، ساوره القلق وأحاطت به الريبة وآثر الإيواء إلى ركن منزوي لحظات امتدت الي دقائق ولما توقف الطرق فُتح الباب وأطل من الداخل رأس أشعث أغبر تفوح من ملابسه رائحة منفرة ، دفع سعد الباب بكلتا يديه وأمسك بالرجل وهنا صرخت سوزان أن يتركه فهو ضيف جاء بصحبه ام حمادة صديقتها ، فكر سعد أن يقتله لكنه تراجع وقد أيقن أنه لا مكان له في هذا البيت ، خرج من بيته ولم ينبس متوجهاً إلى بيت أُسرته ، وجد شقيقه محمود وقد عاد من الكلية وتبعه شقيقه الآخر سيد ، روي لهما ما حدث في حضور أُمه التي دقت براحتها على صدرها فلم تسترح يوماً لهذه المرأة وكيف تستريح وقد علمت بسيرتها الأولى ولولاها لافتضح أمرها، وفي المساء حكت زينب لزوجها ما كان من أمر سعد مع زوجته .

اجتمع سعد مع الصول عطوة حال وصوله إلى البيت في حضور شقيقه توفيق وأمها التي أنكرت عليه ما فعله مع عبده الجزار وكذلك كان موقف توفيق الذي برأ ابنة أخيه من أي سوء بل اتهم سعد بالغلظة وعدم التحضر وخيّروه بين الاستمرار معهم على هذا الوضع وبين الطلاق وكان عليه أن يختار .

شعرت زينب بالحزن على ابنها بعدما لمست فيه نيته علي الطلاق وهي على قناعة تامة بأن ما فعلته سوزان يمثل جريمة في حق ابنها وحقها وحق أسرتها لكن هذه الأقاويل والمفردات لم تكن محل اعتبار عند سوزان وأهلها ، يعيشون حياتهم بالطول والعرض ولا يقيمون للغد وزناً أما الشرف والأمانة فقد كانت مفردات غريبة عنهم ، يسمعون عنها ويدّعونها أحيانا على سبيل المزاح ، غادر سعد بيت أُسرته إلى المعسكر في حال من الهم شديد وهو لا يدري ماذا يفعل ، الشكوى للصول عطوة لا جدوى منها والطاف حماته تشجع ابنتها وعمها توفيق لا رجاء منه ، أراد سعد أن يعيش وأن يكون له بيت وزوجة وأولاد ، وفي العمل أراد أن يحقق حلم أبيه ويصبح ضابطاً ، لقد عاش لهذا اليوم بصدق كما عاشه أبوه في الخيال بكذبة كبيرة عاش فيها حتى الآن ، تم الاتفاق بين سعد وبين أُسرة زوجته فلم يطمع في شيء يخصها بل ترك لهم حرية الإختيار فاختاروا الملابس والأدوات وحجرة النوم والمائدة وأنتريه صغير وتركوا له الشقة خاوية للصوت فيها صدى وللخطوات وقع مسموع ، تجول فيها ، تحسس الجدران بدموع العين وذكرى ما كان ولم تمض إلا أيام حتى أرسل ورقة الطلاق للتي كانت زوجته .

15

تابع محمد شعيب أولاده من على البعد ، الابن الأوسط إنتهى من دراسته في معهد المعلمين ويسعى لتأدية الخدمة العسكرية حتى يتزوج مثل أخيه ، أما محمود فقد التحق بكلية الآداب ، لم يتغير نمط الأسرة كثيراً بعد زواج سعد أو طلاق سوزان ، فقد انقطعت الصلة بينهما ، لقد تأثر بانفصاله عن زوجته لكنه لم يندم على طلاقها فالنساء كثيرات تتعثر خطواته بهن في كل طريق لذلك لم يجد صعوبة في الاختلاط بهن ، اعتاد أن تكون في حياته امرأة ، منذ الصغر تعددت مغامراته ولقاءاته في المناسبات والأفراح وقد أعجبن به راقصاً فاقهن رقصاً ،هكذا خلقه الله محباً للحياة طولاً وعرضاً رقيق المشاعر كان ، إذا ضحك أضحك الجميع وإذا بكى أبكي من حوله وزينب يعتريها القلق ، أقل شيء يسعدها وأقل شيء يحزنها ، همها الأول زوجها وأولادها ، عاشوا حياة الحرمان طويلاً ويبدو أن أيام الحرمان مرشحة للزيادة فقد عاد محمد للعب الورق بشكل أسوأ مما كان عليه ففي نهاية كل شهر يعود خالي الوفاض إلا من مبلغ هزيل لا يفي باحتياجات الأسرة ، بالأمس مر عام كامل لم تتذوق فيه زينب وأولادها طعم اللحم ، الست منيرة هي الحل، لم تهدر وقتاً وسارعت بلف الملاية على جسدها وانتعلت حذاءاً مهترئاً وانطلقت إلى المنزل رقم 13 شارع السلطان سليم ، ذلك البيت الذي شهد جزءاً كبيراً من طفولتها وبكارة مشاعرها حين وقعت عيناها على محمد شعيب عادت بالذاكرة خمسة وعشرين عاماً ومازالت تستحث الخطى نحو البيت ، لم يعترضها أحد ، طرقت الباب مرات ومرات حتى فُتح الباب ، فتحته الست منيرة بصعوبة بالغة وقد ارتسمت ملامح الحزن على وجهها جلست في ملابس سوداء في مواجهة زينب ، سألتها عن أخبارها :

- كيف أنت وكيف أولادك ؟ طمنيني عليك .

شعرت زينب بالجذع ، البيت تظلله سحابة صمت لم تعهده من قبل فهي ابنة هذا البيت :

- ماذا حدث يا ستي ! ولماذا الملابس السوداء ؟ أين جميل بك ؟

- تعيشي أنت ، ستة أشهر مرت على وفاته .

- البركة فيك .

- توفى بعد الأستاذ العقاد بشهرين .

- لذلك لم أر أحمد حمزة خادمه الخاص .

- توفى في قريته بأسوان ولم يبق في الشقة إلا ابن شقيقه عامر العقاد ، طمنيني عليك .

- انا في غاية الحرج منك يا ستي ، الحال لا يسر عدواً ولا حبيباً ، محمد لم يتغير حتى بعد أن تقدم به العمر ولا أعرف كيف أُدبر حالي كل شهر ، في البيت أسيرة له وللأولاد .

- وماذا عن خديجة ؟ شقيقتك .

- لا أعرف لها عنواناً منذ أن تزوجت من عبده النساج

- حاولي تدبري حالك وسيعوضك الله في أولادك ، لقد كبروا الآن وأصبحوا رجالاً .

وبقدر المستطاع ساعدتها الست منيرة لتغادر زينب إلى شقتها في حي المطرية ، للشقة موقع متميز فقد بُني البيت على حافة أرض زراعية محاطة بأسوار تطل عليها زينب من شرفتها صباح مساء ، تستقبل الهواء النقي ورائحة الزهور المنبعثة من مشتل ملحق بالأرض تجاوره

مزرعة دواجن وعدد من الأبقار شيء طبيعي أن تُنفق بعض الطيور، يلقيها صاحب المزرعة في جانب ريثما يتم التخلص منها ، لفت ذلك نظرها فأشفقت على الطيور النافقة من مصيرها المحتوم ، وبقلبها رأت أن الروح مازالت معلقة بها وأنه يمكن تداركها بالذبح ، فكرت في الأمر ملياً حتى أتعبها التفكير وتساءلت عن الحلال وعن الحرام وموقفها من أولادها ، لم يتذوقوا اللحم منذ أكثر من عام ، أليس للضرورة أحكام ! لم ينقطع حوار زينب مع الله ولم تنقطع عن الوقوف في الشرفة لاستنشاق الهواء النقي مع رائحة الزهور المنبعثة من المشتل والتطلع إلي المزرعة .

لم تكن زينب بعيدة عن شقيقتها فكثيراً ما كانت تذكرها بالخير وتنقل حكايتها لأولادها وكيف تزوجت من عبده النساج وعاشت معه في قريتها بكفر الزيات وكيف انفصلت عنه بعد أن أنجبت سعيد وعايدة ثم انتقلت للعمل لدى إحدى الأُسر بالقاهرة ،عبّرت لزوجها عن رغبتها في رؤيتها فما حدث بينهما لا يستحق المقاطعة نصحته خديجة ذات يوم أن يهتم بالبيت قليلاً فثار ثورة عارمة وطردها لتنقطع الصلة بين زينب وبين شقيقتها ثلاثة عشر عاماً لم ترها ولو مرة واحدة ، كان الشقاء قاسماً مشتركاً بينهما وعلى زينب أن تصبر وتحتسب.

دق جرس التليفون في جريدة شمس النهار وكان علي الطرف الآخر من يسأل عن محمد شعيب ، شعر بالقلق وتساءل عن المتصل فمنذ حرب اكتوبر لم يتصل به أحد :

- سعيد عبده النساج .
- سعيد ؟ لقد اختلط علي الأمر ، ماذا تريد ؟
- أُريد العنوان لأزوركم أنا وامي وشقيقتي ..
- نعم .. لقد تذكرت ، أهلاً بكم في أي وقت .

تحدد يوم الجمعة يوم لقاء زينب وشقيقتها بعد سنوات الغياب ، لم تصدق نفسها وراحت تعد الساعات فلم يبق إلا يومان ، فكرت في أحوالها وما جرّه عليها الزمان وتفكرت في الموت واليتم وكيف انتهى بها الحال بالأمس كان لهما أب وأم ، وغداً الجمعة تنتظر شقيقتها على شوق فاق الحد .

استيقظت مبكراً كعادتها وترددت بين الشرفة وبين حجرة أولادها ، سعد في الجيش وسيد انتهى من تأدية الخدمة العسكرية والتحق بالعمل مدرساً بإحدى قرى محافظة الجيزة ، يتردد بين عمله وبين بيت أبيه متطلعاً للزواج ، وعلى حركة الأم استيقظ من بالبيت ، حالة طواريء تهيأت لها زينب ، لم تدر ماذا عليها أن تفعل مع شقيقتها سوى أن تكرمها بالطعام والشراب ، فكرت ماذا تفعل وعاودتها قصة الأمس وعاودت التطلع من الشرفة إلى الأرض الزراعية والمزرعة ، تسللت من الشقة وانطلقت في خفاء والوقت مازال مبكراً حتى وصلت إلى الشارع الخلفي ومن باب المزرعة دخلت دون أن يلحظها أحد وتناولت من الدجاج زوجاً بعد أن تحسسته بقلبها لتشعر بحرارة ما زال أثرها باقياً فللضرورة أحكام يعلمها الله ، ومن الشرفة ذاتها لمح محمود والدته ، نظر إليها مشدوهاً ولم ينبس لكنه تابع بحسرة ما جرى على الدجاج ورائحة الطعام التي لم يسأل والده عن مصدره ، وقبيل آذان العصر توقفت سيارة أُجرة بجوار بيت محمد شعيب هبط منها شاب في مقتبل العمر ومعه والدته وشقيقته وكان اللقاء بين الشقيقتين مؤثراً تخللته دموع كثيرة ، وعلى الطعام التقت الأسرتان عدا محمود الذي رفض أن يتناول طعاماً هو الوحيد الذي يعرف مصدره .

وفي رجاء طلبت زينب من زوجها أن يُحسن معاملة شقيقتها وأن يسمح لها بالزيارة بين الحين والآخر فهي امرأة مكافحة تعمل لدى الأُسر من أجل تربية أولادها سعيد يعمل بالبنك بعد أن توسطت أُمه لدى موظف كبير ألحقه عاملاً بالشهادة الإعدادية أما عايدة فقد تزوجت ومات عنها زوجها بعد أن أنجبت منه طفلة تعيش معها في شقة صغيرة بحي المعادي ، لم تنقطع الزيارات بين خديجة وبين شقيقتها وسط ترحيب من الأسرتين أما سعد فقد حالت ظروف عمله بينه وبين رؤية خالته وأولادها وفي أول إجازة له بعد الزيارة راح يبحث وينقب عن عنوانها حتى تواصل

معهم وأصبح دائم التردد بين بيت أسرته وبيت خالته وفي كل الأحوال لم يكف عن البحث عن زوجة يبدأ معها حياة جديدة .

16

لم تستقم حياة سعد بلا امرأة يعيش معها بالحلال أو الحرام فالأمر لديه سيان ، لكنه في كل الأحوال يرغب في تكوين أُسرة وأن يكون له أولاد ، ومن رحمة الله به لم ينجب من زوجته السابقة ، ورغم أن ظروف عمله حدّت من انطلاقه واختلاطه بالحياة المدنية إلا أنه كان شخص اجتماعي سريع الذوبان مع الناس في حفلات الزواج وأعياد الميلاد وغيرها ، محباً للمرح رغم ما لاقاه في حياته من صعوبات ،استغل الإجازات في زيارة الأهل والأصدقاء وزملاء الدراسة ، أغلبهم تخرج في الجامعة لكن الصلة بينهم ظلت موصولة بلا حساسية فهم أصدقاء الطفولة والشباب الأول ، وفي سعيه للزواج ترك نفسه للمصادفة ، ربما صادف من يقع في حبها أو تقع هي في غرامه حتى كان يوم لم يبرح ذاكرته ، في حفل خطوبة واحد من زملائه اعتلى خشبة المسرح مع راقصة من راقصات الدرجة الثالثة اللاتي تعج بهن الأفراح الشعبية وتباريا في الرقص أكثر من ساعة ، تارة يرقص بالعصا وبمصاحبتها تارة أُخرى بالإضافة إلى إجادته الغناء بصوت شجي ورثه عن أُمه ، لفت ذلك نظر الراقصة ونظر العروس وأُمها وكل المدعوين، وفي نهاية الحفل وقبل أن يغادر حرص على مصافحة العروس هدى التي أبدت إعجابها به بشكل لفت نظر العريس وأثار غضبه لينتهي الحفل وينتهي معه مشروع الخطوبة الذي كان .

هدي رائعة الجمال استطاع التواصل معها بعد شهر من فسخ خطوبتها على زميله ، تركية الملامح مثل أبيها ، شيء ما دفع الأسرتان للمضي في موضوع الزواج ، الشقة موجودة ولم يكن هناك عائقاً يحول دون ذلك ، لقد أخفق سعد في التواصل مع خطيبته تواصلاً حسياً كما كان يفعل مع سوزان ، فارق كبير بين الأسرتين وحتى لا يقع ما يخشى منه سارع والدها بعقد القرآن لتنتقل مع سعد إلى شقة الزوجية .

في بيت هدي استمرت الحياة بشكل جيد وتراوحت حياتها بين البقاء في شقتها مع زوجها حين وجوده أو الإقامة في بيت أُسرتها في انتظاره وبين هذا وذاك ترددت علي بيت حماتها ، لم تكن زينب حماة بالمعنى المتعارف عليه بل كانت بمثابة الأم ، تقوم على خدمة الصغير والكبير وتجد سعادتها في ذلك ، تعددت زياراتها إلى بيت حماتها كما تعددت زيارات شقيقتها خديجة ورغم تعدد الزيارات لم تلتق عايدة بسعد وتطلعت إلى ذلك كما تطلعت إلى رؤية زوجته وطلبت من خالتها أن تتصل بها حين حضوره .

أسفرت علاقة الزوجية عن أمل حلمت به هدى كثيراً كأي فتاة تنتظر لحظة الزفاف كما تنتظر لحظة الأمومة إنتابتها أعراض لم تعرفها من قبل وعاودتها آلام عرفها من خاض تجربة الحمل ، أسّرت إلى أمها وأبيها بالخبر ولزوجها حين حضر وبدوره نقل الخبر إلى أُمه ومنها إلى والده ، فرح محمد شعيب ، دائماً على موعد مع ابنه ، أخيراً سيصبح جداً قبل أن يصبح سعد ضابطاً ، أيام وشهور مضت سريعاً حتى وضعت هدى أول مولود لها أسمته جدته عمرو ، كان ميلاده فاتحة خير لأبيه فقد ترقي سعد إلى درجة مساعد ودخل على والده ببدلة الضباط بلا نجوم ليبعث فيه الأمل من جديد فالمسألة مسألة وقت وفارق في التوقيت ، فرحت زينب فلأول مرة تصبح جدة ودعت شقيقتها وأولادها. حضرت عايدة بصحبة ابنتها ولأول مرة تقع عينها

في عين سعد ، خيوط من فولاذ تلك التي جذبتها لصاحب البشرة السمراء ، تقاربا بشكل لافت مما أثار غيرة زوجته ، لاحظتها عايدة فتعمدت إثارتها مستمتعة بمشاعر الألم التي غزت وجه هدى التي آثرت الانصراف والعودة إلى بيتها ، استأذن سعد واصطحب زوجته مغادراً وطوال الطريق عاتبته في رفق وبأنه لا يصح أن يجرح مشاعرها بهذا الشكل ، حتى لو كانت ابنة خالته فهي أيضاً زوجته ولها حق عليه ، لم يعر الأمر اهتماماً ومضى إلى بيته في وجوم وفكر مشتعل وسؤال يدق في رأسه بقوة : من جاء بهذه المرأة إلى هنا ؟ هو ذات السؤال الذي سألته عايدة وتردد في رأسها : أي مصادفة تلك التي جمعتني بهذا الرجل ؟ لا يمكن أن يكون ابن خالتي !

استمرت الحياة بين سعد وزوجته بين شد وجذب ووصال وحل وترحال ، من البيت إلى وحدته العسكرية ، أُسبوع هنا وعشرون يوماً في العمل مع زيارات متقطعة إلى بيت عايدة في الخفاء ، لم تلحظها هدى وانما لاحظت تغيراً كبيراً طرأ علي علاقته بها في الفراش وبعيداً عنه ، حتى في الكلام والمفردات لم يكن عصبياً معها يوماً ، شعرت بالقلق ونقلت مخاوفها إلى حماتها التي طمأنتها كثيراً فعايدة بمثابة شقيقته الكبرى فهي في بداية العقد الرابع وتكبره ببضع سنوات ، لم تطمئن هدى لكلام حماتها وعاودتها المخاوف من جديد واضطربت حياتها مع سعد الذي دأب على تقليص إجازته مكتفياً بأربعة أيام مع هدى ويومان في مكان غير معلوم استشعرته وقررت مواجهته :

- إلى متى سنظل هكذا ؟
- وماذا ينقصك ؟
- تنقصني أنت .
- وأنا معك .
- لست معي بروحك ، أنت معها هي .
- سعد : أرجوك لا تهدم بيتك بيديك فأنا أحبك ، لا تنسى أن لك ابناً اسمه عمرو ؟ ادخرت لك خبراً لا أعرف إن كان سيسعدك أم سيغضبك ..
- أي خبر ؟
- ستكون أباً للمرة الثانية ..

لم يستطع سعد إخفاء فرحته ولا أن يبديها واكتست ملامحه بالحيرة واجتاحته مشاعر متضاربة ، ربت على يديها وراح يعد حقيبة السفر فاليوم آخر أيام الإجازة

تواصلت عايدة مع سعد عبر التليفون ، وقد اعتادت استقباله يوماً أو بعض يوم في حضور والدها عبده النساج الذي أقام معها بعد انفصاله عن والدتها ، لم تقتصر مهارة عبد النساج في صناعة النسيج وحسب بل كان من هواة القراءة والاطلاع على كتب التراث خاصة كتاب شمس المعارف وكل ما يتعلق بكتب السحر وتحضير الجان وصناعة العطور وكتابة الأحجة للمطلقات لاستعادة أزواجهن ، كذلك أحجبة لمن أردن الطلاق ليزدحم بيت عايدة بالرواد ، أكثرهم من النساء اللائي وثقن به ثقة عمياء وبقدرته على تحقيق المستحيل ، كذلك كانت عايدة ذات قدرة على قراءة الفنجان منذ كانت طفلة في السابعة من عمرها والغريب أن كل ما تقرأه يحدث مما عمّق ثقة السيدات قبل الرجال في قدرتها على الرجم بالغيب والتنبؤ كوّن عبده النساج مع ابنته ثنائياً رهيباً ذاع صيته في حي المعادي وما جاورها من أحياء ، لم يلتفت سعد لما يدور بالبيت فكان كل همه تلك المرأة التي أذهبت عقله لفرط أُنوثتها واستدارة جسدها بشكل أدار رأسه فأهمل بيته وزوجته ولم يعد يتردد على بيت أبيه إلا على فترات بعيدة ووالده في حالة انتظار دائم للإجابة عن السؤال : متى يصبح ضابطاً؟

مرت الشهور سريعاً والأحوال على ما هي فلا جديد في حياة الأسرة إلا انتظار هدى لحظة المخاض التي أسفرت عن طفلة رائعة الجمال أسمتها عبير ، ورثت الملامح التركية عن جدها لأمها ، فرحت زينب كعاتها ، تفرح لكل مولود ، أطفال اليوم سيكبرون غداً ويكون لها أهل وعزوة ، فلم يعد لها في الدنيا إلا زوجها وأولادها وأحفادها وشقيقتها خديجة والست منيرة

أيضاً ، اشتاقت إليها كثيراً ، وكما فعلت مرات كثيرة من قبل ، تركت البيت بعد أن أحكمت الحصار حول جسدها بالملاية اللف وتوجهت إلى بيتها لتطمئن عليها وكلما اقتربت من البيت شعرت بوخز في صدرها ، شعور بالانقباض سيطر عليها ، ألقت نظرة على البيت فوجدت ملابس سوداء قد تدلت من الشرفة ، استحثت الخطى حتى هرولت وبباب الشقة وقفت تلتقط أنفاسها ، انبعث من الباب الموارب صوت قاريء القرآن يرتل ما تيسر منه ثم يصدق داعياً للست منيرة بالرحمة والمغفرة.

وبقدر ما حزنت زينب لوفاة الست منيرة بقدر ما أسعدها أن تصبح جدة للمرة الثانية .

اقتربت من هدى أكثر وتعاطفت معها ووعدتها بمواجهة سعد بكل ما روته لها ونصحتها بالصبر فهي الآن أُم وعليها أن تحافظ علي زوجها وبيتها ولا تدع مجالاً لأخرى لتخطف منها زوجها ، توترت العلاقة بين سعد وبين زوجته أكثر مما كانت عليه وتوطدت مع عايدة بشكل لافت حتى أنه كان يقضي نصف إجازته في بيتها، تلك الأرملة صاحبة الجسد الثائر مازالت في ريعان الشباب وفي حاجة لمن يقمع ثورتها كلما اشتعلت ، لم تقنع بيوم أو يومين من إجازته واستغلت سفر أبوها إلى قريته بكفر الزيات لتنفرد بسعد في كل ركن من أركان الشقة شهد اشتعال الحرائق وكيف يتم إخمادها ، راق لها وأيقنت أنه المالك الوحيد لمفاتيح أُنوثتها والقادر علي فك شفرتها وفض ثورتها ، تدهورت العلاقة أكثر بين هدى وبين زوجها بعد أن انقطع عن بيته واكتفى بإرسال جزء من راتبه كمصروف للأولاد ، لم يستجب لكل الوساطات وكان على زوجته أن تختار بين حياتها في بيت بلا زوج أو العودة إلى بيت أبيها فاختارت الطلاق والبقاء في شقتها لتربية أطفالها غادر سعد شقة المطرية إلى شقة عايدة بالمعادي حاملاً معه حقيبة صغيرة بها بعض الملابس وبعض الأوراق الخاصة بالعمل ، لقد تغير كثيراً وكذلك تغير عنوانه .

17

عاد عبده النساج من قريته إلى بيت ابنته بحي المعادي والحقيقة لم تكن شقة عايدة ولا المنطقة التي تقيم بها تمت إلى حي المعادي العريق بصلة وإنما كانت امتداد عشوائي عُرف باسم عزبة جبريل ، فيها كل عناصر الجلبة والضوضاء وأخلاقيات الزحام ، تنابز بالألقاب ودراجات تسير بشكل متقاطع وباعة جائلين ودواب تنافس عدد السكان ونهيق حمار يجر عربة جاز اختلط بصوت نباح ترامى من على البعد وباعة الخضار افترشن الأرصفة والناس بين سائر ومهرول ومن سار على غير هدى ، اليوم كان الخميس، سارت النساء في الطرقات يتأودن بالعباءات السوداء ذات الإطار المُذهب ومعهم سارت عايدة وقد قبضت بيدها على ذكر بط من الحجم الكبير فاليوم تحتفل بعيد ثورة الجسد مع قائدها ومفجرها ، اليوم قد مر عام على وجود سعد في حياتها ، لم يبد والد عايدة أي اعتراض على بقائه مع ابنته دون زواج ، لا يهمه إلا الطعام والشراب وعمل الأحجبة للنساء والرجال سواء بسواء ، موضوع الشرف لم يعره اهتماماً ، بل أنه أبدى سعادته وإعجابه بسعد وأوصاه برعاية ابنته ليل نهار وقد تحقق لعايدة ما كان يرجوه أبوها دون وصاية لتستمر حياتهما على منوال واحد ، تخرج عايدة صباحاً إلى عملها كواحدة من العاملات في إحدى السفارات العربية بمنطقة الدقي يقمن على تنظيف المكاتب ودورات المياه والوقوف على طلبات أعضاء السفارة من الأطعمة والمشروبات وفي الرابعة تعود إلى بيتها في انتظار سعد الذي انتقل إلى وحدة عسكرية بالقاهرة ، تحمله السيارة في السابعة صباحاً وتعيده إلى بيته في الرابعة والنصف عصراً صارحته بحقيقة أمرها وبأنها لظروف انفصال والديها لم تتعلم ولظروف وفاة زوجها اضطرت للعمل ولأنها وحيدة كانت في حاجة لمن يحنو وينفق عليها، اعترفت له بزواجها عرفياً بطالب من دولة عُمان يرسل إليها مصروف شهري ويعاشرها كلما جاء إلى مصر معاشرة الأزواج ولما انتهى من دراسته طلقها عبر التليفون ، وفي العام الماضي تزوجت عرفياً من طالب بكلية الطب ، سعودي الجنسية ومازالت زوجة له وقد انتهى الآن من دراسته وعاد إلى بلده ومازال يرسل إليها مبلغاً من المال كل شهر على عنوانها بالمعادي لم يعترض سعد وأثنى على ما قامت به بعد أن أغدقت عليه من مالها وجسدها ، اهتم بمظهره اهتماماً كبيراً وفي عمله كذلك وانتقل من مأمورية إلى أخرى محققاً نجاحاً كبيراً حتى أصابه شيء من الغرور في تعامله مع عايدة وتعددت علاقاته النسائية خارج نطاق العمل وقلت فترات وجوده في البيت مما أثار غيرتها ، لم يكن حبها له حب زوجة لزوجها بل كان حب عنيف غلبت عليه الشهوة والاستئثار ، تلتهمه مع كل علاقة وتذوب فيه وتقسم أمام أبوها وأمام الغرباء أنه لا شيء في الدنيا قادر علي إبعادها عن سعد ، استشاطت غضباً فلا يمكن أن تقبل أن تعيش مع نصف رجل وهي امرأة كاملة الأنوثة ، هكذا صرخت في كل من تدخل محاولاً رأب الصدع .

اصطحبها سعد إلى بيت أُسرته وهناك تدخلت أمه واقنعتها بالاستمرار فهي تعرف ابنها أكثر من أي شخص آخر فهو طيب وشهم ، أضافت زينب : لقد ترك زوجته وأولاده من أجلك .

اطمأنت زينب على شقيقتها وعلمت من عايدة أنها مرت بظروف صحية صعبة وأنها انقطعت عن العمل بعد أن تقدم بها العمر وتقدم ابنها سعيد في عمله بالبنك بعد حصوله على الثانوية وانتقاله للعمل بقسم الحسابات

استمرت زيارة سعد لأسرته بمفرده وأحياناً بصحبة عايدة التي كثيراً ما زارت خالتها ومعها صديقتها عواطف ، واحدة من العاملات معها في السفارة ، لم تكن ذات جمال أو على قدر من التعليم وسيد ابن زينب مُعلم قادر علي إعادة صياغتها من جديد ، لم يكن مدرساً طموحاً فكان قنوعاً في العمل قنوعاً بالمرأة علي النقيض من شقيقه سعد الذي لم يعرف الاكتفاء بواحدة ، تعارفت عواطف بالأسرة وتقرّبت من الست زينب وتمنت أن تكون حماتها وأن تزوجها من ابنها سيد وأقسمت لها إذا ما تزوجت ابنها ستكون تحت قدميها فهي بمثابة الأم والأب لها ، عواطف نشأت يتيمة كما نشأت زينب التي رقت لحالها وحدثت ابنها في الزواج منها فهو مدرس وله شقة بإحدى قرى محافظة الجيزة ، انتقل إليها في غضون أشهر قليلة ومعه عواطف لتبدأ معه حياة جديدة بعيداً عن عايدة وعن العمل لتستقر في بيتها متطلعة إلى أن يكون لها بيت وأُسرة ، اختلف محمود عن شقيقيه فقد كان محباً للقراءة والاطلاع يميل للفن والعزلة ، كل من رآه أقسم أنه غريب عن هذا العالم ، انتهى من دراسته في كلية الآداب وتخرج فيها وتقدم لأداء الخدمة العسكرية لمدة عام حتى انتهى منها ، قريب الشبه من أبيه محمد شعيب حتى في هواياته ، أبدى رغبته في العمل بجريدة شمس النهار ورغم معارضة والده إلا أنه رضخ لرغبته في النهاية منبهاً ومحذراً من الحديث عن شقيقه فهو في نظر زملائه ضابطاً بالجيش وعلى محمود أن ينتبه تفهم الموقف وتجنب الحديث عن شقيقه الذي لم تتعد درجته العسكرية درجة مساعد لكنه في يوم من الأيام سيصبح ضابطاً ، تعجل أبوه هذا اليوم وقد تقدم به العمر واقترب من سن المعاش كما تعجل مغادرة الوظيفة ليتخلص من الكذبة التي اقترنت به واستمرت أكثر من خمسة عشر عاماً تؤرقه ، لم يرض محمد شعيب عن التحاق ابنه بجريدة شمس النهار وتمنى أن يتركها للعمل في مجال آخر وقد تحقق له ما أراد بعد ما التحق محمود بوزارة الثقافة .

استمرت حياة محمد شعيب بين بيته وبين المقهى وقد زاد راتبه بشكل غطى متطلبات أسرته بعد أن أقلع عن لعب الورق وانتهى زمن الرهان على سباق الخيل كما انتهت مغامرته العاطفية وأصبحت مع الزمن ذكرى لم يكن مطلوب منه سوى مصروف البيت من طعام وشراب والاطمئنان على أولاده وأحفاده عمرو وعبير من ابنه سعد وخالد وحازم اولاد ابنه الاوسط أما محمود فقد أضرب عن الزواج بعدما رأى ما مر به شقيقه من صعاب مع زوجتيه السابقتين ، فرحت زينب بأولادها وأحفادها بعد ما أصبحت جدة للمرة الرابعة هم أهلها وعزوتها وسندها هم وشقيقتها خديجة التي عاودها المرض بين حين وآخر .

لم ينشغل محمد شعيب بشيء في الدنيا قدر انشغاله بابنه الأكبر فراح يعد الأيام ويحسب السنين فقد استوفى هذا الشهر سنوات الترقي للرتبة الأعلى ، انتظر سعد موعد الترقية من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى ، وبينما مصر تتأهب للاحتفال بثورة يوليو ، صدّق وزير الدفاع على ترقية عدد كبير من الرتب والدرجات للرتبة الأعلى في جريدة شمس النهار دق جرس التليفون بإلحاح وعلى الطرف الآخر جاء صوت تملأه الثقة :

- محمد شعيب لو سمحت .
- حضرتك من ؟
- أنا ابنه ، قل له الضابط سعد .

التقط محمد شعيب سماعة التليفون غير مصدق :

- تمام ..تمام ..عقبال ما تعلق رتبة لواء ، ألف مبروك

التفت محمد إلى المحيطين به في ثبات ، سألوه ما الخبر ؟ طمأنهم أن الضابط سعد بخير وقد ترقى إلى الرتبة الأعلى .

18

استأذن من عمله مبكراً ليعود إلى بيته يزف الخبر إلى زينب ، الباب كان موصداً لكن صوت سيد ومحمود وسعد جاوز حدود الجدران ، رقص قلبه وهو يطرق الباب بإيقاع منتظم ، لم يشعر بنفسه إلا وهو يحتضن حلمه القديم وقد تحقق الآن ، جلس بين أولاده ودار حوار :

- مبروك يا بني ، ألف مبروك .
- ربنا يبارك فيك ، أنا من غيرك لا شيء ، أتعبتك كثيراً وأنت تنتظر الحلم .
- ما كان يؤلمني موقفي أمام زملائي ، التمس لي العذر فلست أقل منهم .
- كنت أنتظر مثلك وأكثر ، فأنا منك .

دمعت عين محمد شعيب تأثراً بالموقف ، نظر سعد إلى معصمه فقد أشارت عقارب الساعة إلى منتصف الليل وعليه أن يعود إلى عايدة التي أصرت على الإحتفال بترقيته حتى الصباح ومن صباح إلى آخر ويوم أسلمه إلى أيام وشهور كثيرة لم تخل من السعادة مع عايدة ومع غيرها ، لاحظت تغيراً كبيراً في علاقته الخاصة بها ، حين ترغب فيه يفر منها بشتى الحجج متذرعاً بأسباب كثيرة ، فتشت في أشياءه وبعثرت محتويات حقيبته لتفاجأ بما يخص النساء وهدايا ورسائل لأسماء متعددة وأرقام تليفونات مجهولة ، ظهرت شراستها كأنثى وجذبت سماعة التليفون لمعرفة حقيقة هؤلاء النسوة ، ردت إحداهن في غنج ودلال فاستشاطت عايدة غضباً ونعتتها بأبشع الألفاظ وصبت جام غضبها عليه وعلى اليوم الذي رأته فيه وهي تصرخ بسؤال عمن تكون هذه المرأة ؟ تابعت الإتصالات بأكثر من واحدة فطاش صوابها فلم تكن تتصور لحظة أن يستسلم سعد لامرأة غيرها ، حزمت أمرها وجمعت ملابسه في حقيبة وألقت بها على باب شقتها وهو يرجو ويتوسل أن تُبقي عليه في بيتها ، تغير لون وجهه إلى اللون الأسمر الداكن وغابت الدماء عنه ومازال يتوسل ولما لم تجد بداً استدعت شقيقه محمود ليحمله على الرحيل هاله ما رأى من أمر شقيقه الأكبر وتساءل : كيف هانت عليه نفسه أن يقيم في بيت امرأة بلا زواج حتى لو كانت ابنة خالته .

حمل الحقيبة وعاد إلى بيت أبيه بصحبة شقيقه ليقيم في بيت أُسرته بضعة أيام لم تخل من محاولة إقناعه برد طليقته ، أولاده في سن حرج وفي حاجة لوجوده بينهم وبعد مناشدات زار سعد بيت طليقته هدى وطلب من والدها أن يردها مرة أُخرى علي أن يعيش لأولاده ليتم عقد القرآن من جديد في حضور الأُسرتين ليستمرمع هدى عشرة أيام وانتظرت عايدة مثلها ، انتظرت توسله ورجاءه ولما لم يفعل بادرت بالاتصال به في مقر عمله

عند موعد الإنصراف في الثالثة عصراً ، توجه سعد إلى الأتوبيس المتجه إلى المعادي وهناك وجد أحضان وقبلات وطعام وشراب في انتظاره وسط ترحيب عبده النساج وعتاب بين الحين والآخر ، أخبرها أنه رد طليقته فاحمّر وجهها كقطعة من لهب ، هاجت وماجت واشترطت عليه شروط لم يرفضها ولم يقبلها فقد كان مسلوب الإرادة وعبده النساج يتأمله في برود بعد أن حقق رغبة ابنته ودفعه إلى الحضور صاغراً رغم إرادته ، ذلك الرجل عرفه الناس في قريته نساجاً ماهراً وساحراً عليماً ، كم فرق بين المرء وزوجه ، كم شتت أُسر كثيرة ، لم يكن من الصعب عليه أن يحقق سعادة ابنته في الحلال أو في الحرام ، لا فرق بين الحالتين ، اشترطت عايدة وللمرة الأولى أن يتزوجها زواجاً حقيقياً حتى يكف الناس عن تناول سيرتها ويمتنع شقيقها سعيد

عن مقاطعتها ، لم يكن له الخيار بعد ما اختارت عايدة ، أرسلت في طلب المأذون الذي عقد قرانها وطلق هدى طلقة لا رجعة فيها .
كان لطلاق هدى وقع مؤلم عليها وعلى أُسرتها وعلى أُسرة محمد شعيب فلم يمض سعد معها إلا أُسبوعين نصفهم معها والنصف الآخر لم تدر عنه شيئاً وتساءل الناس عما جنته من ذنب حتى يظلمها مرتين !
لم تنقطع هدى عن زيارة بيت زينب وكثيراً ما تقابلت مع سعد لبحث شؤون الأولاد ، كذلك تواصلت طليقته الأولى سوزان مع الأسرة ، وحقيقة الأمر كانت زينب بالنسبة لهم بمثابة الأم فلم تشعرهم يوماً أنها حماة بل اعتبرتهم جميعاً أبناء لها ، لقد أحبها الأهل والجيران وكل من في الحي وكذلك محمد شعيب ، أحبه كل من في الحارة فقد تغير كثيراً وأصبح للطيبة عنوان ، يرعى أحفاده ولا يقبل الظلم أبداً فلم يرض يوماً عن تصرفات سعد مع زوجاته وكثيراً ما هاجمه ولامه على ظلم أولاده ، لقد دأب على دعوتهم لبيته للإفطار في شهر رمضان وأمدهم بالمال قدر ما يكفيهم ، وعلى الرغم من طيبته وحب الناس له وحبه لفعل الخير ، لم يصل يوماً في حياته ولم يشهد له الناس باعتياد المساجد راكعاً أو ساجداً ولم يعرفوه صائماً ، لم يستطع الإقلاع عن التدخين وشرب الشيشة مما منعه من الصيام أما الصلاة فلم يمنعه عنها أحد وكذلك أولاده لم يعتادوا الصلاة في البيت أو في المساجد باستثناء صلاة الجمعة حرص عليها محمود وترك باقي الصلوات ، أما الزكاة فقد حرص علي إخراجها في موعدها للفقراء وكذلك كان كثير الصدقات في شهر رمضان وسائر الشهور لم يمتنع عن أي محتاج أما شقيقه عطية وأولاده التسع فقد حرص على مساعدته في تربية أولاده .
اقترب محمد من سن الستين وحانت لحظة خروجه إلى المعاش ، مرت أيام العمر ولياليه وكأنها الحلم وعادت به الذاكرة سنوات طويلة ، تذكر خلالها كيف وفد مع أُمه وشقيقيه من سوهاج إلى القاهرة ، وكيف عمل مصوراً مع الخواجة آفو بمصر الجديدة وكيف التقى بزينب ، عاش معها وحلم أحلاماً كثيرة ، كيف مرت به أيام الشقاء والحرمان تمثلت في أحداث كثيرة ، لم ينس كيف كذب على زملائه وكان ضحية أحلامه التي صورت له ابناً ضابطاً كبيراً ، كيف مرت الأيام به متنقلاً من كذبة إلى أخرى حتى تحول الحلم إلى حقيقة وأصبح ابنه ضابطاً حقيقياً مع فارق التوقيت لتنتهى الكذبة إلى الأبد ، غداً آخر يوم عمل له بجريدة شمس النهار ، غداً سيودع الأماكن والجدران ورائحة الورق والأحبار ، غداً يوم فارق في حياته .
اجتمع الأصدقاء وزملاء العمرعلى طاولة كبيرة تصدرها سامي جرجس مدير عام الأقسام الفنية بالجريدة وقد جلس بجواره محمد شعيب وأمامه هدية كبيرة قدمها المدير له بمناسبة تقاعده بالإضافة إلى لوحة قرآنية كُتبت بلون مذهب ، تأثر محمد تأثراً شديداً لموقف زملائه وموقف المدير وإدارة القسم بأكملها مما دفع المدير إلى مد خدمته خمس سنوات أخرى بعقد يجدد كل عام ، ولم يكتف بذلك وطلب أن يمر عليه .
بعد انتهاء الحفل تردد محمد في الذهاب إلى مكتب المدير الذي أرسل إليه يطلبه لأمر هام ، شعر بالقلق وهو يطرق الباب منتظراً أن يأذن له بالدخول ، وبخطى مترددة جال بعينيه في أرجاء المكتب ، لمح صورة السيدة العذراء معلقة فوق الجدران وعلى المكتب استقر صليب يجاوره تمثال صغير لمرقص الرسول ، سامي جرجس مسيحي مؤمن بعقيدته حق الإيمان وبتعاليم السيد المسيح ، لم يلمسوا منه إلا الحب في كل تعاملاته مع مرؤسيه ، أشار إلى محمد أن يجلس :
- إياك أن تنسانا ..
- وكيف أنسى شركائي في الحياة وعشرة العمر.
- ما رأيك في الحج .
- أي حج !
- حج بيت الله ، لم يبق إلّا شهر ويبدأ موسم الحج .
- آه ..نعم ، هذا صحيح .

شرد محمد طويلاً وهو يسمع من سامي جرجس هذا الكلام وقد عجز عن إدراك ما يدور في رأسه ، سمع عن موسم الحج والحجيج والوقوف بعرفات لكن هذا الأمر لم يشغله كثيراً ولم يشغل حيزاً كبيراً في حياته أفاق من شروده على صوت المدير العام :
- رشحتك لأداء فريضة الحج على نفقة الدولة .
- رشحت من ؟
لم يستوعب ما سمعه ، كيف وهو على غير دينه أن يقوده إلى بيت الله ! غشيه شعور بالامتنان فأقبل على المدير مصافحاً .

19

انطلق محمد شعيب عائداً إلى بيته ليزف البشرى إلى زوجته ، من ذا يصدق ! مؤكد لن يصدقه أحد لكنها إرادة الله ألهمت الأستاذ سامي جرجس ليرشحه لأداء فريضة الحج ، وطوال الطريق راح يتأمل المساجد والكنائس وكأنه يراها لأول مرة ، ما أبعد المسافة التي كانت بينه وبين المسجد وبين الكنيسة ، انتابه شعور مغاير لما كان عليه من حياد للمشاعر تجاه دور العبادة بشكل عام ، فلم تطأ قدمه مسجداً ولا كنيسة مصلياً أو حتى مهنئاً ، تأمل القباب والمآذن في خشوع وانطلق بخياله مستحضراً صورة المسجد الحرام وكأنه يسمع تلبية وتكبير ضيوف الرحمن ، سيطر عليه شعور بالرهبة وهو يروي لزينب ما دار بينه وبين المدير العام ، عليه من الآن إعداد جواز السفر وأربع صور قدمها إلي إدارة الجريدة فقدموا له مبلغاً كبيراً كمصروف شخصي كما خصصت له الجريدة معاشاً يكفل له حياة كريمة .
لن يكون الامس كاليوم ، توجه محمد شعيب إلى المطار بصحبة أولاده ومنه انطلق إلى الأراضي المقدسة حيث قضى هناك ثلاثة أسابيع في حضرة النبي وآل البيت ليعود بعدها إلى القاهرة متوجهاً بمفرده إلى بيته ومعه حقيبة صغيرة فيها بعض الهدايا للجيران ، لم ينس أن يحمل هدايا لأحفاده كذلك حمل هدية لكل من هدى وسوزان طليقتا ابنه سعد ، كل من رآه أقسم أنه تحول لشخص آخر فقد زالت عنه العصبية وأصبح أكثر هدوءاً وحكمة ، في البيت وعلى المقهي وفي معاملته للناس وفعل الخير ومساعدة الأقارب والجيران ، ولعدة أيام متتالية لم تنقطع الزيارة عن بيت الحاج محمد شعيب الجميع حضر لكن خديجة منعها المرض وحالتها الصحية المتردية من الحضور، لم تعاني من المرض فترة طويلة فكان الموت ورحمة الله أقرب لها من الحياة ، وهكذا فقدت زينب آخر من تبقى من عائلتها وكل ما يذكّرها بالقرية وأمها وأبيها ولم يعد لديها إلا أولادها وزوجها فهم الأهل والسند ، اعتلت صحتها وتناوبت عليها أمراض السكر والضغط بعدما تقدم بها العمر لكنها ظلت تقاوم حباً في الحياة مستمتعة بأولادها وأحفادها أما زوجها فقد استمر في العمل بالجريدة بعقد يجدد كل عام ولما انتهت مدة التعاقد لم يلزم بيته فقد اعتاد الخروج كل يوم والالتقاء بزملائه في المقهى القريب من جريدة شمس النهار .
لم يعد شغوفاً كما كان بالأمس بمتابعة أخبار سعد وحساب الأيام والسنين حتى يصبح ضابطاً فقد اطمئن قلبه الآن ولم يعد يشعر بالحرج بين زملائه ، كذلك لم يكن مضطراً للكذب حتى لو عاد به العمر مرة ثانية ابنه كذلك تقدم في العمر وتدرج في الترقية حتي أصبح نقيباً وتدهورت علاقته بعايدة تدهوراً كبيراً فلم يستطع أن يبرأ من علاقاته المتعددة بالنساء أو يبريء نفسه لم يكتف بواحدة في الحلال ولا باثنتين في الحرام بل تعددت علاقاته وسبقته أخباره ومغامراته مع أكثر من واحدة وعايدة تتابع عبر التليفون ، لجأت إلى أبوها فلم ينصفها ، لم تعد تدري ماذا تفعل ، هل تقتله وتستريح فالغيرة تقتلها كل يوم ، لا تستطيع النظر إلى وجهه المليء بالزيف والخداع وكما فعلت في المرة السابقة استعانت بوالدها أن يفرق بينها وبينه بأي طريق فإرادتها تخونها كلما همت بالبعد عنه ، أحبته حباً ملك عليها قلبها وجسدها فأصبحت أسيرة لمشاعرها ونداء جوارحها وبهدوء ظاهر وقلب مشتعل صارحته برغبتها في الطلاق ، وأقسمت أن الطلاق سيتم بإرادته وبغير إرادته حتى لو لجأت إلى المحكمة والغريب أن سعد لم يتوسل إليها كالمرة

السابقة ولم يبك أمامها كالطفل بل جمع حاجياته في صمت واستدعى شقيقه محمود ليحمل معه حقائبه متوجهاً مرة أُخرى إلى بيت أسرته بالمطرية ، وللمرة الثانية تجتمع عليه الأسرة في محاولة لإقناعه بالرجوع لأولاده ، ولكن هيهات فقد تزوجت هدى من رجل آخر .
لم يستطع سعد الحياة بلا امرأة وقد أصابه الوهن ويريد الآن أن يستريح ، بحث بين المعارف والجيران ، لم يعد يهمه جمال الشكل أو الجسد ولا حتى جمال الروح ومن بين الناس تذكر عمه عطية ، له ابنة تقدم بها العمر دون زواج ، في التاسعة والثلاثين من عمرها لم تتزوج بعد ، قصيرة سمراء لكنها تنتمي إلى النساء بشكل أو بآخر ، فاتح عمه في الارتباط بابنته ، لم يكن هناك عائقاً ، في أشهر قليلة استأجر شقة بأحد المناطق الشعبية القريبة من بيت أسرته ليعيش مع زوجته الرابعة مواظباً على الصلاة ، يزور أُسرته بين الحين والآخر ويطمئن على أبيه وأُمه بعد أن داهمتها الأمراض غير مرة وتركت آثارها على حركتها وطريقة سيرها ، شعر محمود بالقلق فهو الوحيد من بين أشقائه الباقي دون زواج ، تنتظر عودته كل يوم من عمله في الرابعة عصراً وما إن يصل حتى يغادر أبوه البيت إلى المقهي حيث يلتقي بزملائه القدامى يتابع من بقي في الوظيفة ومن خرج بالمعاش ومن انتقل إلى رحمة الله ، في المقهي تعرف أيضاً على أصدقاء كثر منهم الأُسترجي وماسح الأحذية ولاعب الكرة القديم وغيرهم ، في ذلك اليوم عاد محمود من عمله وطرق الباب طويلاً دون إجابة ، استرق السمع خشية على أُمه ربما أصابها مكروه ، سمع وقع خطواتها فيما يشبه الزحف ، جرّت قدميها جراً للوصول إلى الباب تفرس في وجهها متسائلاً في قلق عما أصابها فلم تحر جواباً وأشارت إلى فمها ، تدهورت حالتها سريعاً حتى عجزت عن الحركة ، دمعت عينيه وقد جلس بجوارها يقبّل رأسها ويربت على كتفيها ، وعلى الفور استدعى سيارة الإسعاف التي نقلتها إلى المستشفى وبعد عمل الفحوصات تبين إصابتها بجلطة أثرت على النطق والحركة ، سارع محمد وباقي أولاده بالانتقال إلى المستشفي وهناك تدهوت حالتها إثر إصابتها بنزيف في المخ نتج عنه غيبوبة تامة ، وبناء على نصيحة الأطباء نُقلت إلى بيتها ، وعصر يوم الجمعة انطلق صوت المؤذن ومعه فاضت روحها إلى بارئها وأولادها وزوجها يجلسون حولها ما بين صوت ينتحب وصوت يرتل القرآن ترتيلاً ، لم يصدق محمد ما آل إليه حال زينب ، بكي كثيراً ولم يتحمل قلبه أن يراها قد فارقت الحياة بعد ما يقرب من أربعين عاماً في بيت واحد ،هل آن الآوان وحان الأجل وعليه الآن أن يحملها إلى الصندوق ؟ كيف يدفن اليد الحانية التي ما امتدت إليه إلا بكل خير ! ترك محمد شعيب البيت بعد أن عهد لأولاده بإنهاء إجراءات الدفن ، لم يصدق أن زينب قد رحلت وانطلق إلى زملائه في المقهي ، روى لهم ما كان منها وكيف تركته وهو أحوج ما يكون إليها ، وفي المساء توافد الناس على سرادق العزاء وازداد عددهم مما دعا قاريء القران أن يختم ثم يواصل القراءة ليتيح الفرصة والمكان للمعزيين الذين لم يتوقف توافدهم جلس في مقدمة الصفوف عدد كبير من مختلف الرتب العسكرية جاءوا يقدمون واجب العزاء لزميلهم النقيب سعد محمد شعيب ، المشهد كان مهيباً أعاد محمد شعيب إلى سنوات الحلم القديم ، قد تحقق حلمه الآن وأصبح سعد ضابطاً جاء زملائه يشاطرونه العزاء ، وفي بيته توافد عدد كبير من الجيران والأقارب والأصدقاء ، منهم من لم يتوقع وجوده ، جاءت سوزان مع والدها الصول عطوة وعمها توفيق وفي ركن منزوي من البيت جلس عبده النساج بجوار ابنته عايدة واستمر العزاء في اليوم الثاني بحضور زوجته السابقة هدي وأولاده عمرو وعبير ، جمّعهم الحزن اليوم مثلما جمّعهم الفرح من قبل .

20

عاش محمد شعيب أياماً عصيبة بعد وفاة زوجته ، لم يتصور البيت بدونها ، أُمية كانت ، لم تتعلم حرفاً في حياتها لكنها ملكت قلباً وسع الناس جميعاً ، سلم أمره لله وراح يتصدق عليها ويدعو لها مع كل صلاة ، قد تغير كثيراً بعد أداءه فريضة الحج منذ بضعة أعوام وأصبح لا يترك فرضاً صوماً كان أم صلاة ، عاش مع أصغر أبناءه ، ينتظر عودته من عمله لينطلق هو عصر كل يوم إلي المقهى لمقابلة أصدقائه وزملائه في جريدة شمس النهار ، استمرت حياته على هذا المنوال سنوات بين زيارات الأبناء والأحفاد أما شقيقيه فاضل وعطية فقد التفت كل منهما لأولاده وأحفاده دون زيارة واحدة لشقيقهم ، والحقيقة كانت الجفوة متبادلة إلا من لقاء في مناسبات عابرة أغلبها لتقديم واجب عزاء ، ورغم بلوغ محمود الخامسة والأربعين إلا أنه لم يتزوج ولم يحقق رغبة أُمه رغماً عنه ، كثيراً ما تمنى أن يكون له بيت وزوجة وأولاد لكن هذا الحلم ظل أقرب للمستحيل فكلما تقدم إلى فتاة حدث ما يعوق إتمام الخطوبة بشكل مثير ليبقي في رعاية والده الذي تقدم به العمر حتى أنه بات يشكو من بعض الآلام التي عاودته بين الحين والأخر ، لم يصدق محمد شعيب آلامه ، لم يمرض ولم يشك على مدى عمره وحياته الوظيفية الممتدة أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، لم يذهب للطبيب أبداً ، استدعى محمود شقيقيه واصطحبوا والدهم لزيارة الطبيب ومن هناك إلى مركز الأشعة والتحاليل توجهوا جميعاً ، لم يكن الأمر مطمئناً ، بل مثيراً للقلق ، شعر سعد بالانزعاج ، شيء ما يربطه بأبيه ، علاقة من نوع خاص وسباق لتحقيق الحلم القديم ، ليست علاقة بين أب وابنه ! تقدم سعد لجهة عمله بإجازة بضعة أيام ليطمئن على والده وكذلك فعل محمود أما سيد فلظروف عمله وسكنه تابع حالة والده بالاتصال بأخويه بين الحين والآخر ، تدهورت حالة الحاج محمد وكان لابد من نقله للمستشفى بعد قراءة الأشعة التي أسفرت عن وجود ورم لابد من إزالته .

استسلم محمد شعيب لمبضع الجراح واستمرت العملية ثلاث ساعات ونصف ساعة على غير المعتاد وبسؤال الطبيب عن السبب أفاد بالعثور على ورم آخر غير حميد تمت إزالته بنجاح ، وأوصى بالمتابعة بعد ثلاثة أشهر ، وخلال هذه الفترة تحسنت الحالة كثيرة وحان موعد مراجعة الطبيب والغريب في الأمر أن الحاج محمد لم يعد يشعر بأي آلام ، أُجريت الأشعات مرة أخرى وعُرضت على الطبيب ، حاول محمود قراءة ما ارتسم على وجهه في رجاء ليتم نقل محمد إلى حجرة مستقلة حتى الصباح للنظر فيما يمكن عمله ، هكذا أوصى الطبيب لكن الضابط سعد وشقيقيه أقسموا ألا يغادروا المستشفي إلا بعد الاطمئنان على والدهم ، راح في سبات عميق وفي السابعة مساءاً تفرس أولاده في وجهه ، قبّلوا رأسه ويديه ودمعت أعينهم حين رأوا أصابعه تنطق بالشهادة .

الموقف كان حزيناً ، في الصباح الباكر وقف المئات على باب المستشفي في وداع محمد شعيب وفي الداخل وقف سعد ومحمود على غُسله وتم نقله للصلاة عليه في حضور المئات من أهل الحي وغرباء تصادف وجودهم ، أما المساء فقد حمل ما كان يتمناه في حياته أُقيم سرادق العزاء في دار للمناسبات كبير وتوافد المعزيين وتوقفت عشرات السيارات علي الرصيف المقابل للسرادق هبط منها أعداد كبيرة من الضباط بمختلف الرتب العسكرية قدموا واجب

العزاء كما قدموه لزميلهم في المرة الأولى ، تقدم الضباط مصافحين وسعد يتمتم بكلمات اختلطت بالدموع لينتهي العزاء ولم ينته في قلبه وفي بيته أيضا توافد العشرات جاءوا كما جاءوا في المرة الأولى ، لمح منهم الصول عطوة وشقيقه وطليقته الأولى والثانية كما لمح عبده النساج وابنته وغيرهم العشرات توافدوا ، ارتدى جلباب أبيض وكان وجهه غريباً لكل من عرفه ، شارد ذاهل يتنقل بين المعزيين وعلى جبهته ظهرت علامة السجود ، في اليوم التالي وفي بيت المطرية توافد العشرات من زملاء محمود وشقيقه سيد وآخرين ممن عرفوا بنبأ الوفاة مؤخراً ، مر عليهم سعد بعين دامعة جلس في الحجرة المجاورة في مواجهة شقيقه وهو يبكي بحرقة :

- فراق أبيك صعب علي يا محمود .

تظاهر محمود بتمالك أعصابه :

- يا سيدي ..النبي عليه الصلاة والسلام مات

- لكنّه أبوك .

- الحمد لله ، استراح سريعاً حتى لا يعذبه الألم ويعذبنا نحن أيضاً ، ربنا يرحمه .

وأمام تلك الكلمات هدأ سعد قليلاً وراح يتنقل بين المعزيين شاكراً سعيهم .

استمر العزاء لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع عاد أولاد محمد شعيب كل إلى عمله وبقي محمود منفرداً في بيت أبيه لا تطاوعه نفسه إلى طعام أو شراب حتى النوم ، ينام جسداً أما روحه فقد تواصلت مع من رحل لثلاثة أيام متصله تراءت له أُمه في نومه بينما يقف والده في هالة بيضاء في صورة المنتظر وأمه تتحدث إلى شقيقه سعد : أخيراً جئت ، من زمان وأنا أتطلع إلى رؤيتك ، هب محمود من نومه مذعوراً ً وأسّر إلى شقيقه سيد بما رآه غير مرة ودعا الله أن يترفق بهم فقد مر على وفاة والده ستة أيام وفي اليوم السابع وبينما يجلس إلى شقيقه دق جرس التليفون وكان على الطرف الآخر صراخ وعويل وصوت ينتحب : لقد مات سعد .

لم يصدق محمود وشقيقه وانطلقا إلى بيته ، هناك جاء الطبيب تلو الآخر أكدوا جميعاً وفاته بجلطة في الشريان التاجي ، وتواصل رنين التليفون من زملائه ليخبروه أنه حل عليه الدور غداً ليكون الضابط المناوب للمعسكر ، استفسروا عن الصراخ ولم يصدقوا الخبر فقد كان معهم حتى الرابعة عصراً ً، أصّر قائد المعسكر أن يحمله زملاءه إلى مثواه الأخير ، حملوه على الأعناق مسافة كبيرة ليستقر في الجانب المضيء من الكون ، ومن بين المشيعين جاءت زوجته تدور حول المقبرة في صمت ذاهلة وجمع كبير ضم أولاده وطليقاته سوزان وهدي وعايدة في ملابس الحداد وخلق كثير كلهم من طين .

وقف محمود وشقيقه يتلقون العزاء ، لم يتمالك محمود نفسه وانهار باكياً حتى أنه لم يعد يرى من حوله ، تراءي له طيف أمه وأبيه بوجهه المضيء وسط تهليل وتكبير احتفالاً بقدوم الوافد الجديد لتختلط الأصوات بأصوات الصراخ والعويل على رأس المقبرة .